T
55A
c.1

رحلة برتراندون دى لا بروكييه الى سورية ولبنان وفلسطين
١٤٣٢ — ١٤٣٣

نقلها عن الانكليزية وقدم لها وعلق عليها

محمود زايد

دراسة مقدمة الى دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية
ببيروت للحصول على درجة استاذ في العلوم

حزيران
١٩٥٤

فهرست

١ـ تصدير	ص ص	١ـ هـ
٢ـ مقدمة		١ـ ٢١
٣ـ الرحلة		٢٢ـ ٥٧
٤ـ تعليقات		٥٩ـ ٧٩
٥ـ المصادر		٨٠ـ ٨٣

تصدير

لرحلة برتراندون دى لا بروكييه الى الشرق الادنى الاسلامي في سنة ١٤٣٢ قيمة كبيرة من الناحيتين التاريخية والجغرافية بسبب ما تشتمل عليه من وصف للمدن والموانىء التي مر بها . كما ان رحلته تلقي ضوءً على حياة السكان الاجتماعية في القرن الخامس عشر .

وقد زار بروكييه الشرق الادنى الاسلامي وعاد برا بطريق تركيا الى برغندية . وقد ترجمت الى العربية القسم الذى يختص بفلسطين وسورية ولبنان عن النص الوارد في كتاب رايت :

Wright, Thomas: Early Travels in Palestine
(London 1848)

وصدرت الترجمة بمقدمة تشتمل على قسمين رئيسيين : الاول عن اوروبا والحرب الصليبية وذلك لتبيان الدوافع التي دفعت بروكييه للقيام برحلته . فقد طلب فيليب الطيب دوق برغندية من بروكييه زيارة الاماكن المقدسة ، وكتابة تقرير عنها للتمهيد لاعداد حملة عسكرية لتخليص تلك البلاد من ايدى المسلمين .

والقسم الثاني من المقدمة عبارة عن دراسة موجزة للرحلة تشتمل على تبيان قيمة الرحلة بصورة عامة وعلى دراسات لبعض النواحي البارزة فيها هي "التراجمة والادلاء" والحياة الاجتماعية والجانب العسكرى من الرحلة .

وتلي هذه المقدمة ترجمة للرحلة باللغة العربية . وقد ترجمت تعليقات مترجمها للانجليزية ، واثبتها في ذيول الصفحات .

وتلي الرحلة تعليقات على النقاط التي رايت توضيحها او مناقشة صحتها او مقارنتها بما جاء في رحلات رحالة اخرين زاروا البلاد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

× × ×

واستطيع ان اقسم المصادر التي استعنت بها في كتابة المقدمة والتعليق على الرحلة الى ثلاثة اقسام وهي : مصادر اولية لعدد من كبار مورخي عصر المماليك ، ومصادر ثانوية ، ورحلات عدد من الحجاج الى البلاد المقدسة . وفيما يلي تعليقات على اهم هذه المصادر .

المصادر الاولية

من كبار مورخي عصر المماليك المقريزى (ت ١٤٤٢م) ويبحث كتابه "اغاثة الامة بكشف الغمة "في اخبار الغلاء والمجاعات في مصر، فيتناول تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ اقدم العصور الى سنة ٨٠٨هـ. وقد افدت من كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار" في معرفة ازياء جنود المماليك والوظائف الكبرى في دولتهم، ومدى اهتمام سلاطين المماليك بالخيل، ومعاملة الدولة للذميين .

ولموسوعة القلقشندى (ت ٨٢١ هـ) وهي صبح الاعشى قيمة كبرى في دراسة هذه الفترة . فالجزء الذى يتحدث فيه عن المسالك والممالك ذو قيمة كبيرة لمعرفة الاقسام الادارية في الشام . كما ان في موسوعته اخبارا مختلفة عن الاسلحة التي استخدمها المماليك .

وفي طليعة مورخي هذه الفترة ايضا ابو المحاسن (ت ١٤٧٠) صاحب كتاب "النجوم الزاهرة" . فهو شديد التدقيق والتحرى في كتابه هذا . ولا غنى عنه لدارس عهد المماليك من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولموسوعة ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ) "مسالك الابصار في ممالك الامصار" قيمة جغرافية وتاريخية كبيرة . وقد طبع منها الجزء الاول وقام بطبعه احمد زكي باشا . وقد انتفعت بفصله الذى عقده من المساجد والمقامات والمشاهد في بلاد الشام، وبالجزء الذى يتحدث فيه عن الديارات . وتعود قيمة ما كتبه الى زياراته للاماكن التي وصفها ورجعنا اليها .

ومن المورخين البارزين الذين رجعنا اليهم السيوطي (ت ١٥٠٥م) صاحب كتاب "حسن المحاضرة باخبار مصر والقاهرة" . وقد افادنا في اخباره عن معاملة اهل الذمة واخبار الحج .

المصادر الثانوية

من اهم المصادر الثانوية التي استعنت بها ، وخاصة في كتابة المقدمة هو كتاب "الحرب الصليبية في العصور الوسيطة المتاخرة" (١) للاستاذ عزيز سوريال عطية . فهو يدحض في الكتاب الفكرة القائلة بان الحروب الصليبية انتهت بسقوط عكا في سنة ١٢٩١ . وقد افدنا من فصله عن الحجاج في القرن الخامس عشر .

ورجعت الى كتاب كاتيليري وهو "بلاط برغندية" (٢) ويصف فيه مولفه بلاط برغندية ومبلغ حماسة فيليب الطيب لاسترجاع البلاد المقدسة وما جرى من اتصالات بينه وبين نصارى الشرق الادنى الاسلامي في القرن الخامس عشر .

وفي كتاب هيد "تاريخ التجارة في الليفانت" (٣) رجعنا الى وصف مدن الشرق الادنى وحاصلاته وما يورده عن قناصل الدول الاوروبية في البلاد الخاضعة للمماليك ووصف الخانات التي كان المسافرون ينزلون فيها .

ومن المصادر الثانوية المهمة لهذه الفترة كتاب "الحياة الحضرية في سورية في ظل المماليك الاوائل" للاستاذ نقولا زيادة (٤). ففيه عدا الدراسات القصيرة التي يوردها في مقدمته للمصادر فصول ذات قدر كبير عن الحياة الاقتصادية في البلاد .

وللمولف نفسه كتاب اخر وهو "رواد الشرق العربي في العصور الوسطى" وله اهمية لا تنكر لدراسة الحج ودوافعه في العصور الوسطى .

ولقد افدت من مقدمة كتاب ستربلنج عن العثمانيين والعرب وهو "الاتراك العثمانيون والعرب ١٥١١ — ١٥٧٤" (٥) فتشتمل مقدمته على وصف لحوال البلاد قبيل الفتح العثماني .

---

(1) The Crusade In The Later Middle Ages.

(2) Cartellieri: The court of Burgundy (London 1929)

(3) Heyd, W : Histoire du commerce du Levant vol II

(4) Ziadeh, Nicola: Urban life in Syria under the Early Mamluks (Beirut 1953

(5) Stripling, George W.F: The Ottomans and the Arabs (Illinois 1942)

المصادر الثانوية

من اهم المصادر الثانوية التي استعنت بها ، وخاصة في كتابة المقدمة هو كتاب "الحرب الصليبية في العصور الوسيطة المتاخرة" (١) للاستاذ عزيز سوريال عطية . فهو يدحض في الكتاب الفكرة القائلة بان الحروب الصليبية انتهت بسقوط عكا في سنة ١٢٩١ . وقد افدنا من فصله عن الحجاج في القرن الخامس عشر .

ورجعت الى كتاب كاتيليرى وهو "بلاط برغندية" (٢) ويصف فيه مولفه بلاط برغندية ومبلغ حماسة فيليب الطيب لاسترجاع البلاد المقدسة وما جرى من اتصالات بينه وبين نصارى الشرق الادنى الاسلامي في القرن الخامس عشر .

وفي كتاب هيد "تاريخ التجارة في الليفانت" (٣) رجعنا الى وصف مدن الشرق الادنى وحاصلاته وما يورده عن قناصل الدول الاوروبية في البلاد الخاضعة للمماليك ووصف الخانات التي كان المسافرون ينزلون فيها .

ومن المصادر الثانوية المهمة لهذه الفترة كتاب "الحياة الحضرية في سورية في ظل المماليك الاوائل" للاستاذ نقولا زيادة (٤). ففيه عدا الدراسات القصيرة التي يوردها في مقدمته للمصادر فصول ذات قدر كبير عن الحياة الاقتصادية في البلاد .

وللمولف نفسه كتاب اخر وهو "رواد الشرق العربي في العصور الوسطى" وله اهمية لا تنكر لدراسة الحج ودوافعه في العصور الوسطى .

ولقد افدت من مقدمة كتاب ستريلنج عن العثمانيين والعرب وهو "الاتراك العثمانيون والعرب ١٥١١ — ١٥٧٤" (٥) فتشتمل مقدمته على وصف لحوال البلاد قبيل الفتح العثماني .

---

(1) The Crusade In The Later Middle Ages.

(2) Cartellieri: The court of Burgundy (London 1929)

(3) Heyd, W : Histoire du commerce du Levant vol II

(4) Ziadeh, Nicola: Urban life in Syria under the Early Mamluks (Beirut 1953

(5) Stripling, George W.F: The Ottomans and the Arabs (Illinois 1942)

كتب الرحلات

استعنت عند التعليق على الرحلة بعدد من الرحلات زار اصحابها الاماكن المقدسة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين .

فمن بين الرحالة الذين زاروا الشرق الادنى في القرن الرابع عشر ايطالي من تسكانيا وهو نيقولو اوف بوجيبنسي (١) . هبط بوجيبنسي الشرق الادنى في سنة ١٣٤٧ م وزار فلسطين وسورية ولبنان ومصر . وغادر مصر في صيف سنة ١٣٤٩ م . وقد كان ينوى "ان ازور كل شيء ، والا اعود الى بلادى الا اذا حققت ذلك ." وكانت النتيجة انه اهتم بالاثار وخاصة بالكنائس واشكالها والقائمين على ادارتها واخبارها .

وزار الشرق الادنى في القرن الرابع عشر ايطالي اخر من فلورنسة وهو ليوناردو فريسكوبالدى (٢) وذلك في سنة ١٣٨٤ . ومعلوماته عن النصارى في الشرق والكنائس التي زارها ، على الرغم مما هي عليه من ايجاز ، ذات اهمية لدارس الشرق الادنى في القرن الرابع عشر .

ومن الرحلات التي اعتمدت عليها رحلة ابن بطوطة الرحالة العربي الذى زار الشرق الادنى في القرن الرابع عشر . والشبه كبير بين رحلة ابن بطوطه ورحلة بروكييه من حيث انهما سجل لحياة الناس الاجتماعية . فالجانب الاجتماعي في كلا الرحلتين بارز . فكل منهما يهتم بالاشخاص الذين يلقاهم ويسجل عاداتهم ومعاملتهم له .

اما رحالة القرن الخامس عشر فقد كان اكثر اعتمادنا على اثنين منهم وهما سوريانو الذى كتب عن البلاد المقدسة (٣) وكاسولا .

---

(١) Niccolo oF Poggibonsi

(٢) Leonardo Frescobaldi

(٣) Treatise on the Holy Land.

واولهما وهو الاب فرانسيسكو سوريانو مواطن من البندقية تولى حراسة الاماكن المقدسة مرتين : الاولى من ١٤٩٣ الى ١٤٩٦ والثانية من ١٥١٣ الى ١٥١٥ .

وقد ساعدته اقامته في الشرق الادنى على التعرف على عادات اهله وتعلم اللغة العربية والتفاهم بها مع الناس . وعلى الرغم مما يبدو في رحلة سوريانو من تعصب للكاثوليك يجعله يرى الطوائف الاخرى حائدة عن جادة الصواب فان هذا لا يقلل من اهمية رحلته ولا بحال . فقد دفعه تدينه الى الاهتمام بالكنائس وبطوائف النصارى المختلفة المقيمة في كنيسة القيامة في القدس . وقد اورد لنا معلومات قيمة من الناحية التاريخية عن الاشخاص الذين تعرف اليهم في البلاد المقدسة ومصر .

والرحلة الاخيرة التي ساختم بها كلامي على المصادر هي رحلة كانون بيتروكاسولا الى الشرق الادنى سنة ١٤٩٤ . وكاسولا ايطالي من ميلان . وتغص رحلته بالشكوى من المعاملة القاسية التي يلقاها الحجاج الى الاراضي المقدسة . ولكن رحلته تشتمل على معلومات ذات اهمية كبيرة عن نزول الحجاج وميناء يافا والتراجمة . ويتحدث عما يلقاه في البلاد من مزروعات كانت لبعضها اهمية تجارية كبرى .

اوروبا والحرب الصليبية

ينصب اهتمام حجاج القرن الرابع عشر على ناحيتين رئيسيتين وهما : وصف الاماكن المقدسة وتراث المسيح لاخوانهم من اهل اوروبا ، والدعوة للقيام بحرب صليبية لتخليص هذه الاماكن من ايدى المسلمين (١) غير انه من قبيل الخطأ ان نظن بان حوافز الحجاج الى البلاد المقدسة في هذا القرن كانت مقصورة على هذين الغرضين . فقد كانت حوافزهم تشمل ، فيما تشمل ، حب الرحلة والمجازفة والسعي في سبيل تشجيع التجارة والكسب المادى والتبشير .

لكن على الرغم من ان الناس كانوا يتحدثون عن الحرب الصليبية (٢) بصورة دائمة الا ان تحقيق القيام بالحرب اصبح ابعد مما كان عليه في اى وقت مضى . وقد ظهرت علامات هذا التحول قبل حلول القرن الخامس عشر . فقد كانت مصالح جمهوريات ايطالية التجارية تقضي باستمرار العلاقات الودية مع المماليك (٣) . وظهرت افكار جديدة فيما يتعلق بموقف الغرب المسيحي من الشرق الاسلامي . فالغرب كان يسعى الى القضاء على "الكفار" فلماذا لا يقوم بتنصيرهم ؟ اليس تنصيرهم امرا يتفق مع تعاليم المسيح ؟ وممن حملوا لواء هذه الافكار الجديدة المصلح الديني يوحنا ويكلف الذى اعتبر جميع حروب الفتح ضربا من ضروب اللصوصية (٤) ومن هؤلاء لانجلاند (٥) الذى يتحدث عن العرب بدون ان يتهجم عليهم . فقد كان من الجائز ان يسيروا في الطريق الصحيح لولم يخدعهم محمد الذى فشل في الفوز بكرسي البابوية . ويرى لانجلاند وجوب العمل على تنصيرهم (٦) . بل لقد عارض في قيام الحرب الصليبية رجال من غير المصلحين مثل جووار (٧) الذى يرى ان قتل العربي يتعارض مع تعاليم المسيح (٨) .

---

(١) Bliss, Frederick Jones: The development of Palestine exploration p. 111 (Newyork 1906) Atiya: The Crusade p. 107

(٢) Jusserand, J.J: English Wayfaring Life in the Middle Ages (London 1891)

(٣) Ibid : p. 240

(٤) Atiya: The Crusade p. 188

(٥) Langland

(٦) Jusserand: Wayfaring Life, p. 385

(٧) Gower

(٨)
A sarazin if I Slee shall
I slee the soule forth withal
And that was never christes lore.
(Confessio Amantis)

اوروبا والحرب الصليبية

ينصب اهتمام حجاج القرن الرابع عشر على ناحيتين رئيسيتين وهما : وصف الاماكن المقدسة وتراث المسيح لاخوانهم من اهل اوروبا ، والدعوة للقيام بحرب صليبية لتخليص هذه الاماكن من ايدى المسلمين (١) غير انه من قبيل الخطأ ان نظن بان حوافز الحجاج الى البلاد المقدسة في هذا القرن كانت مقصورة على هذين الغرضين . فقد كانت حوافزهم تشمل ، فيما تشمل ، حب الرحلة والمجازفة والسعي في سبيل تشجيع التجارة والكسب المادى والتبشير .

لكن على الرغم من ان الناس كانوا يتحدثون عن الحرب الصليبية (٢) بصورة دائمة الا ان تحقيق القيام بالحرب اصبح ابعد مما كان عليه في اى وقت مضى . وقد ظهرت علامات هذا التحول قبل حلول القرن الخامس عشر . فقد كانت مصالح جمهوريات ايطالية التجارية تقضي باستمرار العلاقات الودية مع المماليك (٣) . وظهرت افكار جديدة فيما يتعلق بموقف الغرب المسيحي من الشرق الاسلامي . فالغرب كان يسعى الى القضاء على "الكفار" فلماذا لا يقوم بتنصيرهم ؟ اليس تنصيرهم امرا يتفق مع تعاليم المسيح ؟ وممن حملوا لواء هذه الافكار الجديدة المصلح الديني يوحنا ويكلف الذى اعتبر جميع حروب الفتح ضربا من ضروب اللصوصية (٤) ومن هؤلاء لانجلاند (٥) الذى يتحدث عن العرب بدون ان يتهجم عليهم . فقد كان من الجائز ان يسيروا في الطريق الصحيح لو لم يخدعهم محمد الذى فشل في الفوز بكرسي البابوية . ويرى لانجلاند وجوب العمل على تنصيرهم (٦) . بل لقد عارض في قيام الحرب الصليبية رجال من غير المصلحين مثل جووار (٧) الذى يرى ان قتل العربي يتعارض مع تعاليم المسيح (٨) .

---

(١) Bliss, Frederick Jones: The development of Palestine exploration p. 111 (Newyork 1906) Atiya: The Crusade p. 187

(٢) Jusserand, J.J: English Wayfaring Life in the Middle Ages (London 1891)

(٣) Ibid : p. 240

(٤) Atiya: The Crusade p. 188

(٥) Langland

(٦) Jusserand: Wayfaring Life, p. 385

(٧) Gower

(٨)
A sarazin if I Slee shall
I slee the soule forth withal
And that was never christes lore.
(Confessio Amantis)

ومن العوامل الجديدة التي كانت تقف في طريق اعداد الحرب الصليبية ، بصورة عملية ، الروح القومية الجديدة التي اخذت تنمو في كل يوم ، واشتغال ملوك اوروبا بتوطيد ممالكهم . ثم الانشقاق الذى حدث في الكنيسة ، مما جعل اوروبا ترى ان البابوية فقدت استقلالها وان البابوات واقعون ، على حد تعبير مورخي الكنيسة ، في الأسر البابلي (١) وقد زعزع هذا الانشقاق اسس السلطة البابوية . (٢).

لكن على الرغم من ان القيام بحرب صليبية اصبح حلما باهظ التكاليف عسير التحقيق فانه ظل حيا ماثلا في الاذهان . فهناك ادب الدعابة الذى نشره الحجاج والرحالة محرضين الامراء والبابوات على تجديد حملات للقضاء على سلطان المماليك ووقف تقدم الاتراك في اسيا الصغرى . ومن اقدم ما وصلنا من كتب الدعاية بعد سقوط عكا ما كتبه ثاديو النابولي . فقد وصف ثاديو سقوط عكا ووجه رسالة للامم النصرانية لاثارة حماستها للقيام بحرب صليبية (٣) وحفل القرنان ، الثالث عشر والرابع عشر ، باحداث خطيرة كان من شانها ان تشعر الاوروبيين بخطر العرب والاتراك المتزايد على ما بقي في ايدى الاوروبيين من مراكز في الشرق . فقد كانت السلطنة المملوكية تقوى في كل يوم . فقد تمكنت من هدم سورية ، وجعلت بعد ذلك تتوسع ، فضمت ارمينية الصغرى التي كانت تمثل اخر نصر للكاثوليكية في الشرق . وكان يقع على اوروبا عبء انقاذ هذه الدولة بعد ان استولى عليها امير حلب في سنة ١٣٧٥ م واسر ملكها ليو السادس وسيق الى القاهرة . ولحقت قبرص بهذه الدولة عندما جرد عليها المماليك حملات بحرية متتالية وتمكنوا من اسر ملكها جانوس . وتعرضت رودس لحملات مشابهة مهدت السبل لطرد فرسان القديس يوحنا فيما بعد على يد سليمان القانوني (١٥٢٦–١٥٦٦) وقد قام صاحب مملكة ارمينية الصغرى ، الذى دفعت الكنيسة فدية الاطلاق سراحه ، مع ملك قبرص بيير الاول لزوينيان بتحريض الغرب على القيام بحرب صليبية .

---

(١) Stephenson, Carl, Medieval History(Newyork 1943)

(٢) Atiya : The Crusade, P. 189

(٣) نقولا زيادة : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (ص ١٣ (القاهرة ١٩٤٣)

وكان هناك الخطر التركي الذى اخذ يشتد في كل يوم ايضا • وكانت معركة نيقوبوليس ١٣٩٦ نذيرا باكتساح الاتراك لاوروبا • وقد اتجهت انظار الاوروبيين الى الشرق عندما غزا تيمورلنك القوة التركية المتعاظمة • لكن سرعان ما زال هذا الخطر وبدت الدولة التركية بعد تسنم مراد الثاني العرش في سنة ١٤٢١ وطيدة الاركان واخذت تتحفز للزحف مرة اخرى (١) وخسرت البندقية سالونيك وهزمت المجر واجتيحت المجر •

دوقات برغندية والحرب الصليبية

وكان من اشد المتحمسين للحرب الصليبية دوقات برغندية الذين كانوا يحكمون اغنى مقاطعات اوروبا • وكان بلاط برغندية يتمتع بشهرة كبيرة بسبب ثروة اصحابه وقوتهم (٢)• وكان اهل غرب اوروبا ينظرون الى مفاخر هذا البلاط بمزيج من الدهشة والاعجاب ويعدونه معادلا للنهضة في ايطاليا (٣)•

وقد شهد بلاط الدوق فيليب الطيب (١٤١٩ — ١٤٦٧) اخر محاولة قام بها دوقات برغندية للقيام بحرب صليبية • فقد كان استرجاع الاراضي المقدسة من اعز امانى فيليب الطيب (٤)• فقد كان فيليب الطيب يعتقد انه ولد ليكون ملكا (٥)• وكان يطمح الى النجاح في الميدان الذى فشل فيه غيره ، فمن شان نجاحه في استرجاع الاراضي المقدسة ان يكسبه شهرة كبيرة •

وكان فيليب على اتصال بالنصارى في فلسطين وقد بعث بشحنة من الخشب الى فلسطين لبناء كنيسة بيت لحم • وبنى نزلا للحجاج في مدينة الرملة • وقدم للفرنسيسكان في جبل صهيون مجموعة فخمة من قماش الزيتة مطرزا بالذهب (٦)•

---

(١) Prescott, H.F.M. : Friar Felix at large (New Haven 1950) P.12

(٢) Atiya : The Crusade P. 189

(٣) Cartellieri, otto : The Court of Burgundy P.17

(٤) Cartellieri : The Court of Burgundy P. 12

(٥) Ibid : P. 11

(٦) Prescott: Friar Felix , P. 14

وكان دوقات برغندية ينظرون الى هزيمة اوروبا في معركة نيقوبوليس على انها اذلال ليس لسيجسمند صاحب المجر فحسب ، بل ولبرغندية ايضا (١) فقد اخذ والد فيليب الطيب اسيرا في هذه المعركة بينما كان يحارب ضد الاتراك .

وكان جده قد وصل الى البندقية في طريقه الى زيارة الاماكن المقدسة . ولو لم توقف جمهورية البندقية السفر موقتا لحقق القيام بالزيارة (٢).

وكان يشجع فيليب الطيب على القيام بحرب صليبية حليفه هنرى الخامس ملك انجلترا الذى لم يعكر صفو ساعاته الاخيرة قبل وفاته المبكرة الا فشله في تحرير الاماكن المقدسة (٣). ومن اجل التمهيد للقيام بحملة صليبية قام جلبرت دى لانوى تلبية لرغبة ملك انجلترا هنرى الخامس ودوق برغندية فيليب الطيب بزيارة مصر وسورية في سنة ١٤٢١م. وقد اشتمل تقريره على معلومات ذات اهمية كبيرة من الناحية العسكرية وهي مضمنة في القسم الثالث من " رحلاته وسفاراته "(٤) فهو يصف فيه الموانىء في مصر وسورية وصلاحيتها لاستقبال السفن و والاسوار والقلاع وقوة المماليك العسكرية .

وكان هنرى الخامس قد توفي قبل عودة لانوى . فحمل عبء التفكير بالحرب الصليبية فيليب الطيب وحده . ومن اجل دراسة الخطط اللازمة بعث بفارسه برتراندون دى لابروكييه الى سورية . وقد دفع فيليب نفقات سفره التي بلغت مئتي جنيه استرليني (٥) وقد ذكر بروكييه الغرض الذى قام من اجله برحلته في مقدمة هذه الرحلة وهي " حفز هم الراغبيين في الاسفار من النبلاء ، واجابة لطلب سيدى المعظم القوى ... لكي يتعرف الراغبون في فتح القدس من ملوك المسيحيين وامرائهم ومن تحدوهم الرغبة في زيارة تلك الاماكن في جميع البلاد الخ " وقام بها كذلك وفاء بما اعتزم عليه من الحج الى الاراضي المقدسة (٦).

---

(١) Prescott: Friar Felix , P. 11

(٢) Ibid : P. 11

(٣) Cartellieri : P. 12

(٤) Voyages et embassades

(٥) Atiya : The Crusade P. 191
Schefer, M.ch., Le Voyage d'outremer, Introd.P xvii

(٦) cf: Prescott: P. 15
Wrignt : P. 283.

وقد قام بروكييه بمهمته خير قيام ، وتغلب الجانب العسكرى في رحلته على الجانب الديني (١) ، وجاءت دراسته للاتراك على جانب كبير من الاهمية ، فقد بين اسرار قوتهم في نظرة ، وهي طاعتهم التامة للسلطان ، وحسن دربة افراد الجيش واسلحتهم الخفيفة . ويورد بروكييه الشروط التي لا بد من توفرها اذا ما اريد توجيه حملة على الاتراك . فيرى ان الملك الذى يقوم بحملة صليبية يجب الا يهدف الى الكسب الشخصي ، وان يومن وجود المال اللازم لهذه الحملة ، وان يتالف جيشه من فرنسيين وانجليز وان يطيع افراد الجيش قائدهم طاعة تامة (٢).

وقد لقيت رحلة بروكييه اهتماما كبيرا لدى الدوق فيليب . وحدث في تلك الاثناء ان استغاث الامبراطور البيزنطي به ، وطلب منه المساعدة بواسطة جان تورزلو (٣). فقدم الدوق طلب الامبراطور لبروكييه لدراسته وتقديم التوصيات اللازمة بشانه.واستجاب بروكييه لطلب الدوق ، وقدم تقريرا موجزا ضمنه رايه بشان مشروع ارسال حملة ضد الاتراك . ولكن اراء بروكييه في هذا الموضوع جاءت مخيبة لامال الدوق . ويظهر ان بروكييه قد اكد ان غزو تركيا ليس بالامر الهين ، وان استعادت البلاد المقدسة بطريق البر امر غير عملي .

لكن الدوق فيليب لم يرجع عن عزمه على القيام بهذه الحرب . ومن اجل هذا اوفد الاسقف جان جرمين الى بلاط شارل السابع ملك فرنسا يدعوه للاشتراك في رد خطر الاتراك " فالمنتصر عليهم ياتي في الدرجة الثانية بعد داود وقسطنطين وشارلمان " الا ان نفوذ الدوق وبلاغة الاسقف لم تستطيعا التاثير على الملك الذى كان امر تنظيم مملكته يستحوذ عليه ويصرفه عن توجيه اى قسط من نشاطه لغزو الاتراك .

وجاءت اخيرا الضربة التي قضت على تنفيذ القيام باى حرب صليبية جديدة وهي سقوط القسطنطينية في يد الاتراك في ٢٩ ايار ١٤٥٣ . وكانت الصدمة قوية لفيليب الذى اعتبر الحادثة اهانة شخصية له (٤). ولكنه مع هذا لم يفقد الامل مطلقا في القيام بالحرب الصليبية فقام بدعوة فرسان اوروبا الى احتفال واظهر فيليب خلاله

---

(١) Wrignt: Introd. P. xxviii

(٢) Wrignt: PP. 360 - 370

(٣) Atiya : P. 204

(٤) Cartellieri: The Court of Burgundy P. 136

استعداده لغزو الاتراك بل "و لمبارزة السلطان اذا رغب في ذلك "(١)....
ولكن دعوته لم تجد اذنا صاغية . وقد لمحاولته الفشل .

---

(١) Cartellieri: The Court of Burgundy P. 148

سير الرحلة

غادر بروكيبه بلاط سيده ، الدوق فيليب الطيب دوق برغندية ، في غنت في فبراير (شباط) من سنة ١٤٣٢م. (١) وسافر برا الى روما ومن ثم الى البندقية . وفي الثامن من مايو (ايار) ركب السفينة مع عدد من الحجاج الى يافا مارا بيولا وزارا وكورفو ومودون وورودس وقبرص (٢).

ووجد بروكيبه يافا خربة ، وسار الى الرملة وكانت غير مسورة . وعرج في طريقه على اللد (٣) ثم واصل سيره الى القدس فوصلها بعد يومين . وبعد ان قام بالزيارات المعتادة ذهب الى الاردن حيث عمد المسيح ، كما زار بيت لحم .

وفي القدس اتصل بروكيبه بكبير التراجمة ، ويدعوه نانخاردين ، ليرتب له زيارة الى دير القديسة كاترينة في سيناء . ولكنه لم يواصل سفره الى مصر . اذ يظهر ان رحلته كانت ستقتصر على البلاد الاسلامية في الشرق الادنى باستثناء مصر (٤). ويشير بروكيبه الى القسوة التي كان يعامل بها الحجاج في غزة . ومن خلال عودته الى القدس بعسقلان . ولم يتمكن من مغادرة القدس قبل التاسع عشر من اغسطس (٥).

وكان في هذه الاثناء ، قد فكر في العودة الى فرانسا بطريق البر على الرغم مما كان سيتعرض له من خطر . ولكنه قام ببعض الزيارات قبل عودته . فغادر القدس الى يافا ثم الى عكا التي لم يكن فيها عندئذ اكثر من ثلاثمئة بيت (٦). وواصل سفره الى بيروت مارا بصور وصيدا . ووجد ميناء بيروت في حالة حسنة (٧). ثم توجه الى دمشق "اهم مدينة في السلطنة بعد القاهرة" فوصلها بعد يومين (٨).

---

(١) Wrignt(ed.): Early Travels in Plalestine (London 1848)P.284

(٢) Ibid: P. 286

(٣) Ibid: P. 287

(٤) Atiya, Aziz Surial: The Crusade in the Later Middle Ages P. 198(London 1938)

(٥) Wrignt : P. 291

(٦) Ibid: P. 292

(٧) Wrignt: P. 292

(٨) Ibid: P. 293

وغادرها بروكييه الى بيروت وقام بزيارة الناصرة وجبل طابور ، ثم عاد الى دمشق حيث التقى " بعربي اسود كان قد وصل من القاهرة على جمل في مدة ثمانية ايام فقط"(١)

ولما كان بروكييه قد اعتزم العودة الى اوروبا برا فقد قدم نفسه لرئيس قافلة الحج العائدة من مكة واسمه هوباراخ وادعى انه يود زيارة اخ له في بروسه • فقبل رئيس القافلة ان يضمه الى مماليكه على ان يرتدى مثل البستهم •

وقبل ان تغادر القافلة دمشق قام بروكييه بزيارة دير السيدة صيدنايا حيث شاهد الصورة التي يقطر منها زيت • وتحركت القافلة في ٦ اكتوبر من سنة ١٤٣٢• ومرت بحمص" وهي مدينة جميلة محاطة باسوار وخنادق " وبحماة حيث تعرف بروكييه على تاجر بندقي يدعى لورانت سورانز • فاحسن هذا وفادته وتحول معه في انحاء المدينة •

ويدخل بروكييه بعد ذلك ارمينية • وكانت عاصمتها انطاكية • ووجد بروكييه اسوارها في حالة جيدة اما بيوتها فلم تكن تزيد عن ثلاثمئة بيت (٢)• ويضيف ان صناعة اهلها الرئيسية هي تربية الماشية •(٣)

ثم يقطع بروكييه اسيا الصغرى ويصف حياة الاتراك ويعدد صفاتهم • ويقول بانهم قوم مرحون ، ولهذا ينبغي على من يريد ان يعيش بينهم الا يكون عبوسا ، ثم يشيد بروكييه بكرمهم (٤)•

ويواصل بروكييه سفره الى بروسة التي هرع اهلها لاستقبال القافلة • وهناك قام بعض المستقبلين بتقبيل يد بروكييه ظنا منهم بانه احد الحجاج (٥)• ويصف بروكييه اهمية بروسة فيقول انها كانت مركزا تجاريا وان فيها مقبرة السلاطين وسوقين كبيرتين •(٦)

---

(١) Wrignt: p. 300

(٢) Ibid; p. 313

(٣) Ibid: p. 313

(٤) Ibid: p. 317

(٥) Ibid: p. 331

(٦) Ibid: p. 332

ويتابع بروكييه رحلته الى القسطنطنية ، ملتقى التجار من امم عديدة اهمها البنادقة ، الذين كان يتولى تنظيم امورهم هناك مشرف خاص وهو امتياز كانوا قد حصلوا عليه منذ زمن طويل (١). ويحز في نفس بروكييه انه لم يبق للامبراطور البيزنطي الا ظل من مجده السابق وانه يدفع للاتراك جزية تبلغ عشرة الاف دوكة . (٢)

وغادر بروكييه القسطنطنية في ٢٣ يناير (كانون الثاني) من عام ١٤٣٣ الى ادرنة " وهي مدينة تجارية ماهولة بالسكان قائمة على نهر ماريزا وتبعد مسيرة ستة ايام من القسطنطينية "(٣) وقد تجول بروكييه في القسم الاوروبي الخاضع للاتراك . وامدنا بمعلومات قيمة عن الجيش التركي . ويغادر بروكييه ادرنه في الثالث عشر من مارس (اذار) من سنة ١٤٣٣ الى مقدونيا ثم الى صوفيا "احسن مدن بلغاريا " عندئذ (٤).

ويعود بروكييه الى بلاط سيده دوق برغندية ويقدم له حصانه ولباسه العربي والقرآن وحياة محمد باللغة اللاتينية .

---

(١) Wrignt: P. 341

(٢) Ibid: P. 341

(٣) Ibid: P. 343

(٤) Ibid: P. 356

كلمة عن سورية في القرن الخامس عشر

كانت سورية الطبيعية في هذا القرن تابعة لمصر . وقد بدت هذه الدولة المصرية السورية في اول امرها قوية الى حد اعتبرت معه مركز السياسة والثقافة في العالم الاسلامي (١). فقد نجحت في صد المغول في معركة عين جالوت ١٢٦٠م. وفي اجلاء الصليبيين عن سورية . الا ان هذه الدولة فقدت اعتبارها فيما بعد ، في ظل المماليك البرجية ، الذين " فشا فيهم الظلم والعدوان وكثرت فيهم المصادرات وغلبت سيآتهم على حسناتهم "(٢) ويرسم مورخو هذه الفترة صورة ناطقة لفساد السلاطين وبذخهم وارهاقهم الشعب بالضرائب . وقد حدث عندما جمع برسباى (١٤٢٢-١٤٣٨) قضاة المذاهب الاربعة في القاهرة وطلب موافقتهم على استحداث ضرائب جديدة ان رد عليه احدهم ، كما قيل بقوله : " كيف نفتيه باخذ اموال المسلمين ، وكان لبس زوجته يوم ظهور ولدها - يعني الملك العزيز يوسف - ما قيمته ثلاثون الف دينار ، وهي بدلة واحدة وزوجة واحدة " (٣) ويعد هذا العهد من اظلم عهود تاريخ مصر وسورية (٤)

وكانت الادارة في سورية في العهد المملوكي استمرارا للنظام الفاطمي العباسي (٥). وكانت بلاد الشام تقسم الى ستة اقسام ادارية عرفت بالنيابات وهي دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك ، واضيفت في القرن الخامس عشر نيابة اخرى وهي نيابة غزة (٦). وكان النظام المتبع في ادارة هذه النيابات على غرار النظام المتبع في حكم مصر . فكانت كل منها عبارة عن وحدة مستقلة يراسها نائب يعينه السلطان

---

(١) جان سوفاجيه : دمشق الشام ترجمة فواد افرام البستاني ص٣٦ (ط بيروت ١٩٣٦)

(٢) الاسحاقي ، محمد بن عبد المعطي : تاريخ الاسحاقي ص١٩٣ (ط مصر ١٣٠٠)

(٣) ابن تغرى بردى ، جمال الدين : النجوم الزاهرة ج ٦ ص٧٣٩ (ط. كاليفورنيا)

(٤) حتي فيليب : تاريخ العرب المطول ج ٣ ص ٨٠٢ - ٨٠٣ (بيروت ١٩٥١)

(٥) Hitti, PhiliP: History of Syria P. 637(London, 1951)

(٦) Ziadeh Nicola: Urban Life in Syria PP. 11-12 (Beirut 1953)

القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٩٨ (ط مصر ١٩١٤)

وله حاشية ومماليك واتباع (١). الا ان مملكة دمشق كانت اوسع هذه الممالك . وكان نائبها ارفع شانا من نواب الاقاليم الاخرى . وكان يطلق عليه اسم "النائب الكافل" او كافل الممالك الاسلامية او الشامية (٢).

وتتابع في صفحات مؤرخي هذه الفترة اخبار القحط والاوبئة والمجاعات والزلازل . ويذكر صاحب النجوم الزاهرة ان سورية ومصر خسرتا نحو الثلثين من سكانهما في عهد المماليك (٣). ويذكر ابن اياس ان اربعة وعشرين الف شخص ماتوا في يوم واحد في طاعون سنة ٨٣٣هـ(٤) ومما زاد في اثر هذه النوازل اجتياح الجيوش المغولية بقيادة تيمورلنك سورية في سنة ١٤٠٠م. وكانت التجارة مع اوروبا في اوائل هذا العهد رائجة . ويذكر بروكييه، صاحب هذه الرحلة، انه وجد في دمشق تجارا من جنوة والبندقية وكلابريا وفلورنسة وفرانسا (٥) ولكن هذه التجارة، الحيوية بالنسبة للدولة، ضعفت اخيرا بسبب كثرة الضرائب التي فرضها السلاطين، وبسبب احتكار السلاطين لمنتوجات مصر الرئيسية . ولقد بلغت الضرائب حدا لا يطاق حتى ان الكمية التي كانت تثمن في البداية بدوكة واحدة (اى حوالي نصف جنيه استرليني) في البندقية اصبحت تثمن بستين دوكة بل بلغت في بعض الاحيان مئة دوكة (٦). وجاءت الضربة الكبرى لاقتصاديات المماليك عندما اكتشف البرتغاليون طريق الهند بالدوران حول راس الرجا الصالح، وذلك عندما تمكن فاسكو داجاما من الوصول الى الهند سنة ١٤٩٨. فسلبت دولة المماليك مقومات حياتها . فقد حرمت من تجارة المرور التي كانت تفرض عليها الضرائب الباهظة . وقد حاول المماليك ان يداروا هذا الخطر بالطرق الدبلوماسية اولا ثم بالسلاح . ولكن الاساطيل البرتغالية هزمت اساطيل المسلمين . ولم تبعث الحياة في مجارى انهار الشرق الادنى الا بتدفق التجارة العالمية في القرن التاسع عشر (٧).

---

(١) حسن على ابراهيم : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢١٨ (ط ٢، ١٩٤٨)
(٢) نفس المصدر : ص ٢١٩
(٣) النجوم الزاهرة : ج ٦ قسم ٢ ص ٢٧٣ (ط كاليفورنيا)
(٤) ابن اياس، بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨ (ط ١٣١١هـ)
(٥) Wrignt: Early Travels p. 205
(٦) Newett, M. Margaret: Canon Pietro Casola's Pilgrimage (1494) p. 358 (Manchester 1907)
(٧) لويس برنارد : العرب في التاريخ (ترجمة نبيه فارس ومحمود زايد) ط بيروت ص ٢٢٦ — ٢٢٧

قيمة الرحلة

تمثل رحلة بروكييه فترة الانتقال من الرحلات الوصفية السائدة في العصور الوسطى الى الاساليب الحديثة في الرحلات الوصفية . ويرى بلس (١) ان فترة الانتقال هذه تصل ذروتها برحلة فيلكس فابري الذى زار الشرق مرتين بين سنتي ١٤٨٠ و ١٤٨٤ . الا ان الشبه بين رحلة فابري والرحلات الحديثة ثم من الناحية الشكلية فقط. فجغرافية البلاد كما راها لم تسجل تقدما كبيرا على معلومات سابقية . الا ان الصورة التي يرسمها فابري بقلمه للشرق الادنى الاسلامي هي اكثر اتقانا من صور الرحالة هذا ان لم تكن اهمها (٢) ففابري يرتب المدة القديمة بادراك وتمييز ويحاول البحث فيما يشاهده محاولة الناقد . وربما كان استخدامه لجانب النقد التاريخي في بحث موقع القبر المقدس المحاولة الاولى من نوعها في العصور الوسطى . فلم يشغله الموقع نفسه بقدر ما شغلته مسالة ما اذا كان هذا الموقع هو في واقع الامر المكان الحقيقي الذى دفن فيه المسيح (٣).

وتحمل رحلة بروكييه كثيرا من السمات التي تبشر بالعهد الجديد للرحلات الوصفية . فيكاد قارئ رحلته الا يعرف ان القائم بهذه الرحلة هو احد حجاج العصور الوسطى . فهو لم يهتم بتاريخ الاماكن المقدسة ، ولا يخصص من رحلته لوصف هذه الاماكن ما خصصه لوصف قافلة الحجاج العائدة من مكة . وعلى الرغم مما كان يسيطر عليه من روح التحامل على اهل البلاد فلم يمنعه هذا من تعدى حدود المعرفة السطحية مع من تعرف اليهم . فقد عقد عرى صداقة متينة مع افراد من المسلمين (٤) ولعل بروكييه اول ميسيحي انضم الى قافلة الحجاج ليتمكن من العودة الى اوروبا برا على الرغم من التحذير الذى لقيه ممن استشارهم في الامر .

---

(١) Bliss

(٢) Atiya: The Crusade. P. 219

(٣) Bliss: PP. 121 - 122

(٤) prescot: P. 202

ومما يستلفت نظر قارئ الرحلة دقة ملاحظة بروكييه واهتمامه بامور كثيرة لم تكن لتستلفت انظار الكثيرين من سابقيه من الرحالة ، ولهذا جاءت رحلته غنية بوصف جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية في الشرق الادنى الاسلامي في القرن الخامس عشر ، ويشبه من هذه الناحية ابن بطوطة الرحالة العربي في القرن الرابع عشر ، الذى جاءت رحلته سجلا للتاريخ الاجتماعي الاسلامي اكثر منها سجلا في تقويم البلدان والجغرافيا (١) فلم يفت بروكييه ان يسجل وصف الخيمة وطريقة نصبها (٢). ويصف طريقة نعل الحصان (٣) واحتفال اهل بيروت بالعيد ووصف حفلة شرب النبيذ (٤).

ونجح بروكييه في اجتذاب القارئ اليه بسبب اهتمامه بتسجيل المصاعب والمخاطرات الشخصية التي تخللت رحلته . فتراه يطيل في وصف الحيوان الذى لقيه في الصحراء واعتزامه على القيام بالعودة الى اوروبا بطريق البر مهما تكن المصاعب التي كانت ستواجهه . وتغلب على بروكييه وهو يسرد مجازفاته صفة العسكرى المعتد بنفسه .

ولا يهتم بروكييه بتقصي ما يسمعه من اخبار فيما عدا ما يختص بالناحية التي كانت تهمه اكثر من غيرها وهي الناحية العسكرية التي كانت غرضه الاساسي من رحلته . فهو يخلط بين نهرى الفرات وجيحون (٥) وبين طبرية والسامرة (٦) ومكة والمدينة . ويقبل ما يسمعه من اخبار عن الديانة الاسلامية مثل خبره عن الحجاج الذين يفقاون عيونهم بعد زيارة قبر الرسول . ولكنه في الوقت ذاته يتقصى اخبار قلعة دمشق ويبحث في اسرار ما يحرزه الاتراك من انتصارات في حروبهم ومعلوماته في هذا الصدد صحيحة .

وفي الصفحات التالية دراسات قصيرة لبعض النواحي البارزة في الرحلة .

---

(١) زيادة : رواد الشرق العربي ص ٧٨

(٢) Wrignt: p. 309

(٣) Ibid: p. 304

(٤) Ibid: pp. 311 - 312

(٥) Ibid: p. 306

(٦) Ibid: p. 296

التراجمة والادلاء عند بروكييه

تلقي رحلة بروكييه ضوءً على فئة التراجمة والادلاء . فنجد فيها ذكرا لكبير التراجمة في القاهرة . وكبير التراجمة في القدس . ويذكر ان المسافر عند وصوله القدس كان في العادة يتصل بكبير التراجمة فيه القدس ، فياخذ هذا ضريبة باسم السلطان ثم ياخذ ضريبة لنفسه ، ويدون عمر الحاج واسمه ولقبه واوصافه "بالدقة والتفصيل" ثم يرسل نسخة عن هذا كله لكبير التراجمة في القاهرة . ويذكر الحاج جوكي انه دفع لكبير التراجمة في القاهرة ٤ دوكات كضريبة وانه دفع لكبير التراجمة في القدس ضريبة قدرها ٤ دوكات الى جروسي(١) .

ويظهر مما يورده بروكييه انه كانت لكبير التراجمة صفة رسمية . فقد كان على اتصال بكبير التراجمة في القاهرة ، كما كان ينظم رحلات المسافرين فيتصل مع التراجمة في انحاء البلاد ، ويبعث بتراجمة اخرين مع المسافرين . ويذكر الحاج فابرى ان هناك ترجمانا في القدس رياتي في المرتبة الثانية بعد كبير التراجمة . ويظهر ان كبير التراجمة كان مسئولا عن شئون الحجاج ، اذ يذكر فابرى انه كان يطلب من الحجاج ان ينقلوا شكاواهم الى كبير التراجمة (٢).

ولا شك ان هؤلاء كانوا يقدمون خدمات كبيرة للحجاج . فقد كانوا احيانا يعرضون انفسهم للموت في سبيل القيام بواجبهم نحو المسافرين بسبب جشع الموظفين واعتداءات الاهالي (٣).

ونجد في تقارير الرحالة الاخرين ما يدل على ان التراجمة على العموم كانوا كرماء في معاملتهم للمسافرين . فيذكر فابرى ان ساباثلينانكو كبير التراجمة يستحق الاحترام وانه احب الفاها لو الترجمان الثاني ، بل يقول ان التراجمه كانوا يعرضون انفسهم للمخاطر بسبب حبهم للمسيحين (٤) ويضيف ان الترجمان الذى رافقهم الى

---

(١) Publications of the Studium Biblicum Franciscanum no.6 : Visit to the Holy places. P.150 (Jerusalem 1948)

(٢) Prescott: P. 198

(٣) Publications of the Studium Biblicum Franciscanum: A voyage Beyond the Seas(1346-1350) By Fra Niccolo of Poggibonsi. P.xvi (Jerusalem 1

(٤) Prescott: P. 204

حدود سوريه في طريقهم الى مصر كان ابا لهم • ويشبه نقولا اوف بوجوسبونسي الترجمان سعيد ، من اهل الرملة ، بالراعي الذى يقود قطع غنمه وانه كان يلتزم تعاليم محمد (١)

اما الادلاء والمكارة فكانوا ينقلون المسافرين من مكان لاخر ويقومون بوصف الاماكن لهم " وكان المكارة في الشام هم الذين يرشدون المسافرين " (٢) وكانت معاملة هؤلاء لبروكيه ، فيما عدا حادثة واحدة حاول الادلاء فيها ابتزاز المال منه مرضية. ففي الخليل حذروه من دخول الجامع لئلا يصيبه مكروه او يضطر للدخول في الاسلام • وعند دخول بروكييه الى الشام حال المكارى بين الذين تقصدوا التحرش به وبينه • وفي طبرية خلصه المكارى من دفع الضريبة المفروضة على الحجاج وخرج به من المدينة ليلا (٣)•

ولا يزجي بروكييه الكثير من الثناء على خدمات هؤلاء بسبب ماكان يحمله من فكرة سيئة عن اهل البلاد بوجه عام وبسبب ما كان يقوم به المكارة احيانا من محاولات للحصول على مبلغ من المال اكبر من المتفق عليه •

---

(١) Niccolo of Poggibonsi: P. 101

(٢) Wright: P. 293

(٣) Op.cit: P. 300

بروكييه وحياة السكان الاجتماعية :

وصل بروكييه الى الشرق الادنى الاسلامي وهو متحامل على سكانه شأن اكثر حجاج العصور الوسطى الاوروبيين • ولا يخفي بروكييه هذا ، بل لا يحاول ان يتستر عليه ، فتراه يعبر عن هذا الشعور في اكثر من مناسبة فيقول مثلا " ولما اوصيت بالا اثق بالعرب من هذه الملة الضالة " (١) وفي مكان اخر يصف اهل دمشق بقوله " واورد هذه الحادثة لابين ان سكان دمشق قوم اشرار على الانسان ان يتجنب المشاجرة معهم "(٢) ويعود هذا التحامل ، الى حد كبير ، الى ما كان يكتبه الحجاج عما يلقونه من مصاعب خلال زياراتهم للاماكن المقدسة ، كما يعود الى وصية رئيس الفرنسيسكان للحجاج قبيل مغادرتهم الرملة الى القدس ، باللاتينية والايطالية (٣)• وكانت هذه الوصية تتضمن قواعد وارشادات للحجاج عليهم اتباعها خلال اقامتهم في الاماكن المقدسة • وقد كان يوصيهم بالا يثقوا بالعرب حتى بمن يتودد اليهم منهم (٤)•

لكن لا يلبث بروكييه ان يمتدح كرم العرب وحسن استضافتهم للغريب بعد ان جرب ذلك بنفسه عندما اوى عند بعض الاعراب في طريقه الى غزة • ويذكر ان العربي الذى كلف بالاعتناء به بالغ في السهر على راحته • ويضيف الى ذلك ان العرب لم يسلبوه ماله وامتعته (٥)• ويذكر بعد ذلك كيف استضافه عربي في طريقه الى طبرية ولكنه لم يدرك ان استقبال العربي له كان بدافع كرم لا لانه راى ما يحمله بروكييه من النبيذ (٦)• ويستطيع القارئ لرحلة بروكييه ان يلحظ فرقا بين معاملة الجهات الرسمية للحجاج الاوروبيين وبين معاملة الافراد لهم • فيذكر بروكييه ما لقيه من عدل نائب غزة وحمايته له من المكارة الذين حاولوا أجباره على استئجار دوابهم (٧) ، كما ينوه بما لقيه من عدل حاكم دمشق الذى اطلق سراحه عندما قبض عليه (٨)•

---

(١) Wrignt: P. 303

(٢) Ibid: p. 294

(٣) Newett: Casola's Piligrimage p. 384

(٤) Prescott: p. 197

(٥) Wrignt: p. 290

(٦) Ibid : p. 289

(٧) Ibid: p. 289

(٨) Ibid: p. 307

ويسهب بروكييه في وصف قافلة الحج العائدة من مكة الى دمشق ، ويذكر انها كانت تتالف من ثلاثة الاف جمل • ويظهر ان بروكييه استقى معلوماته عن الحج من المملوك عبد الله الذى تعرف اليه في دمشق • فقد ذكر له هذا المملوك ان عدد افراد قافلة الحج يبلغ سبعمائة الف • وفي هذا الرقم مبالغة كبيرة • فمحمل الحج الذى كان يخرج من دمشق لم يكن يمثل العالم الاسلامي كله ، فقد كانت تخرج من العالم الاسلامي اربع محامل سلطانية من القاهرة ودمشق وبغداد وتعزكل على انفراد (١)• وتنقص معلومات بروكييه عن شعائر الحج وامكنتها الدقة • اما وصفه لاستقبال المحمل فدقيق فقد لاحظ الفرق بين الجمل الذى يحمل الكسوة وبين المحفة التي كانت تحمل في العادة على جملين او بغلين (٢)•

ويظهر بروكييه اهتماما كبيرا بالخيل • ومعلوماته عنها دقيقة • فهو يؤكد اهتمام العربي بالخيل ، ويذكر ان الاغنياء من العرب يتحدثون مع ضيوفهم في الاسطبل ، الامر الذى يحرصون من اجله على نظافته ورطوبته (٣)• وكان هذا امرا طبيعيا في عصر كعصر المماليك اعتمد فيه على الخيل في الحرب • ونجد ان الاسطبلات السلطانية كانت تحت ادارة خاصة عرفت باسم "الركاب خاناه" وكان "نظر الاسطبلات" من الوظائف العامة في الدولة • ويقول المقريزى في هذا الصدد بان هذه الوظيفة "جليلة القدر"(٤) ويذكر بروكييه ان ثمن الحصان كان يبلغ مئة وخمسين دوكة • ولكن اثمان الخيول الكريمة كانت تبلغ اضعاف هذا المبلغ ويذكر المقريزى ان ثمن الفرس الواحد من خيول ال مهنا بلغ الستين الف درهم والسبعين الف درهم (٥) وكان السلطان يخلع الخيول على الامراء والمقربين اليه مرتين في السنة : الاولى عند خروجه الى مرابط خيوله والثانية عند لعبه الكرة في الميدان (٦)•

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ص١٨٤ (ط٢ القاهرة ١٣٢١هـ)

(٢) المحمل بكسر الميم الاولى وفتح الثانية الة كالمحفة يحمل على ظهر الجمل بخلاف المحفة تحمل بين جملين او بغلين •
القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ص ١٣٠ (ط القاهرة ١٩٢٢)

(٣) Wrignt: 305

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ص٣٦٥ (مصر ١٣٢٥)

(٥) الخطط : ج ٣ص٣٦٥

(٦) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص٥٤ـ٥٥ (ط ١٩١٤)

ويهتم بروكيبه بالبسة المسلمين اللذين لقيهما في طريقه الى طبرية (١) فيصف بدقة الكلوتة التي كان كل منهما يلبسها على راسه بدون عمامة ، وهي ذات قرنين منعطفين الى اسفل عينه ويسرة ، ومصنوعة من الصوف الاحمر. ويذكر المقريزى ان هذه الكلوتات عرفت بالكلوتات الجركسية (٢). ويظهر ان هذين المسلمين كانا من العساكر العاديين لانه يذكر ان اكمام قبائيهما كانت عريضة . فقد كان الامراء والمقدمون واعيان الجند يتميزون بلبس اقبية قصيرة الاكمام (٣).

---

(١) Wrignt: pp. 299 - 300

(٢) الخطط : ج ٣ ص ٣٥٢

(٣) الخطط : ج ٣ ص ٣٥٢

الجانب العسكري من الرحلة

كان الغرض الاساسي من رحلة بروكيية الى الشرق الادنى الاسلامي هي جمع المعلومات اللازمة لاعداد حملة لغزو البلاد والاستيلاء على الاماكن المقدسة . ومن اجل هذا الغرض نراه يهتم اهتماما خاصا بوصف الموانئ والمدن التي يمر بها وتحصيناتها ودرجة مناعتها في وجه الغزو. ثم يصف الاسلحة التي يراها ويحاول اثارة الغربيين لنجدة اخوانهم المسيحين في الشرق الذين يصيبهم ظلم العرب ، ولتخليص الاماكن المقدسة من ايدى المسلمين بسبب ما يلقاه الحجاج الى هذه البلاد من معاملة قاسية .

ومعلوماته فيما يختص بالموانئ والمدن ذات قيمة كبيرة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية . فيذكر بصدد الموانئ ما اذا كان الميناء صالحا لاستقبال السفن ، ثم يصف تحصيناته ان كانت هناك تحصينات " فميناء عكا يصلح لرسو السفن . عميق وغير مسور"(١) " وميناء يافا سيء ضحل " (٢) ويهتم فيما يختص بالمدن باسوارها وفنادقها وقلاعها . ومما يدل على بالغ اهتمامه بالقلاع تقصيه اخبار قلعة دمشق . فلم يفته انها تخضع للسلطان مباشرة وان نائبها مستقل عن نائب دمشق ، وانه لا يسمح لنائب دمشق بدخولها (٣) ويتفق في معلوماته هذه مع وضع قلعة دمشق عند مورخى هذه الفترة فيذكر القلقشندى ان نائبها لم يكن "يمكن احدا من طلوعها "(٤).

ويبدو اهتمام بروكييه بالاسلحة في اطالته في وصف سيوف دمشق التي "هي خير السيوف وافضل ما يصنع في سورية "(٥) فيصف طريقة صقلها كما يصف مرايا الفولاذ التي تعكس الضوء فتولد النار في الاشياء . كما يبدى اهتماما زائدا

---

(١) Wrignt: P.

(٢) Ibid: P.

(٣) Ibid: P.

(٤) القلقشندى : ج ٤ ص ٩٤ . (ط ١٩١٤)

(٥) Wrignt: P. 304

بالمقذوفات النارية التي كان اهل بيروت يطلقونها احتفالا بالعيد (١). فتحرى عن صانعها وعن طريقة صنعها . والح على الصانع ان يوقفه على طريقة صنعها ، وقدم له رشوة من اجل هذا الغرض . فوقف على السر واخذ معه الى اوروبا انموذجا من هذه المقذوفات (٢). كما اجتذب القوس اهتمامه فتحرى عن استعماله واشترى ختيعة للف الاصبع عند استعمال القوس وجعبة سهام .

ويشير بروكيبه الى الظلم الذى كان يقع على النصارى من اهل البلاد والقسوة التي كان الحجاج يعاملون بها في البلاد المقدسة ، ويحاول بهذا اثارة الغربيين لنجدة اخوانهم في الدين بالاستيلاء على الاماكن المقدسة . فهو يرى "ان خضوع القدس لحكم العرب القاسي يلحق العار بالعالم المسيحي ويحزنه "(٣)

اما النصارى من اهل البلاد فقد كانوا خاضعين للقوانين المتعلقة باهل الذمة . ويورد النويرى القيود التي فرضت على اهل الذمة سنة ٧٠٠ هـ زمن السلطان الناصر محمد وهي :

" ان يميز النصارى بلبس العمائم الزرق واليهود بلبس العمائم الصفر ، وتميز نساء اهل كل ملة كذلك بعلامة تظهر ، ولا يركبوا الخيول ، ولا يحملوا سلاحا ، ويركبون الخيل الحمر بالاكف عرضا من غير تمييز لها ولا قيمة ، ويجنبوا اوساط الطرق المسلمين في مجالسهم عن مراتبهم ، ولا يرفعوا اصواتهم على اصوات المسلمين ، ولا يعلوا بناؤهم على بناء المسلمين ، ولا يظهروا شعانينهم ، ولا يضربوا النواقيس ، ولا ينصروا مسلما ولا يهددوه ، ولا يشتروا من الرقيق مسلما ولا من سباه مسلم ، ولا ما جرت عليه سهام المسلمين . ومن دخل الحمام منهم يميز بعلامة عن المسلمين بجرس في حلقه ، ولا ينقشوا فصوص خواتيمهم بالعربي ، ولا يعلموا اولادهم القران ولا يستخدموا في اعمالهم الشاقة مسلما ولا يرفعوا النيران " (٤)

---

(١) Wright: P. 296

(٢) Ibid: P. 296

(٣) Ibid: P. 287

(٤) حسن ، على ابراهيم : مصر في العصور الوسطى ص٤٩٨

ويضيف السيوطي بصدد ازياء اهل الذمة ان اهل السامرة الزموا بلبس العمائم الحمر ، وان الشروط المتعلقة بالزى ظلت هكذا حتى زمنه (١).

وقد صدر في سنة ٧٠٠ هـ ايضا اجراء يقضي " الا يستخدم احد منهم (اى اهل الذمة) بديوان السلطان ولا بدواوين الامراء والا يركبوا خيلا ولا بغالا وان يلتزموا سائر ما شرط عليهم (٢).

وفي سنة ٧٥٥ هـ صدر مرسوم يلزم اهل الذمة بقوانين مشابهة للتي ذكرت (٣).

ويمكننا ان نقرر بان اهل الذمة لقوا في عهد المماليك معاملة أسوأ من تلك التي عوملوا بها في ظل الفاطميين . ونجد صدى هذه المعاملة فيما كتبه الحجاج المسيحيون ممن زاروا البلاد في هذه الفترة .

واما القسوة التي كان يلاقيها الحجاج في البلاد المقدسة فكانت ناشئة عن جشع النواب وحكام الاقاليم ، وجشع التراجمة . ونجد في رحلة كاسولا اشد تذمر من سوء معاملة الحجاج . فيقول بانه يجب ان تتوفر لدى الحاج ثلاثة اكياس وهي : كيس الصبر وكيس المال وكيس الايمان "(٤) بل نجد اشارة عند ابن بطوطة لهذه القسوة ، فيقول عند كلامه على كنيسة القيامة بانه " على كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها رغم انفه " (٥)

---

(١) السيوطى : حسن المحاضره ج ٢ ص ١٧٨

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم ٣ ص ٩١١ (ط القاهرة ١٩٣٩)

(٣) حسن ، على ابراهيم : مصر في العصور الوسطى ص ٥٠٠

(٤) Newett: Casola's Pilgrimage P. 225

(٥) ابن بطوطه الرحلة : (ط. اوروبا) ص ١٢٤

رحلة برتراندون دى لا بروكييه

١٤٣٢ ، ١٤٣٣

لحفز هم الراغبين من النبلاء والملوك في الاسفار ، واجابة لطلب سيدى المعظم القوى ، الذى هو بمشيئة الله دوق برغندية ولورين وبرابانت ولمبورج ، وكونت فلاندرز وارتوا وبرغندية وبلاتين اوف هانولت وهولندا وزيلند ونامور ، ومركيز الامبراطورية المقدسة ، وسيد فريزلند وسالين ومالين قمت بتدوين هذه المذكرات .

انا برتراندون دى لا بروكييه ، مواطن من دوقية جيان ، وصاحب القلاع القديمة ، ومستشار دوق برغندية (+) العظيم والخوان سلار (×) في بلاطه ، دونت بامانة وصفا لرحلاتي القصيرة ، وذلك بعد ان استعدت في ذهني كل حادثة ، وبعد ان رجعت الى مختصر يضم ما كنت قد دونته بشكل مذكرات ، كيما يتعرف الراغبون في فتح القدس من ملوك المسيحيين وامرائهم ومن يفكرون في القيام بحملات عليها ، والذين تحدوهم الرغبة في زيارة تلك الاماكن ، على جميع القرى والمدن والمناطق والبلاد والانهار والجبال والممرات القائمة في مختلف النواحي التي يمرون بها في طريقهم من برغندية الى القدس ، وعلى اصحابها .

والطريق من هنا [برغندية] الى رومة ، المدينة المقدسة ، معروفة لدى معرفة لا تتطلب الوقوف عندها ووصفها . وعلى هذا فسامر عليها مر الكرام ، ولن اطيل في الكلام الا عند وصولي الى سورية .

لقد قطعت جميع البلاد من غزة ، وهي مدخل مصر ، الى مسيرة يوم من مدينة حلب الواقعة على الحدود الشمالية والتي يمر بها الذاهب الى فارس .

وكنت قد عقدت العزم على الحج الى بيت المقدس فلما صممت على الوفاء بما عزمت عليه ، غادرت بلاط مولاى الموقر في شباط من سنة ١٤٣٢ م . ، وكان حينذاك في غنت . وبعد ان اجتزت بيكاردى وشامبين وبرغندية ، عبرت سافوى ، وقطعت

(+) كانت برغندية منقسمة الى قسمين احدهما دوقية والاخر كونتية . ولما كان القسم الثاني يعرف باسم (فرانش كومتيه) فقد اخذ منذ هذا الوقت يدعى برغندية — ولهذا السبب نجد صاحب هذه الرحلة يدعو فيليبا كونتا ودوقا . (رايت)

(×)

نهر الرون ووصلت الى تشامبرى بطريق جبل دى تشات • وهنا تبدا سلسلة من الجبال يدعى اعلاها جبل كنس ويشكل ممرا خطرا على المسافرين اثناء تساقط الثلوج • ويصعب تتبع الطريق الى حد يضطر معه المسافر ، في حالة حرصه على سلوكها ، الى الاستعانة بدليل من اهل البلاد • ويدعى الادلاء فيها باسم المارونيين + • ويحذر اهل هذه البلاد من احداث اية ضجة لئلا تثير الهواء حول الجبل ، فاذا احدثت ضجة من ذلك النوع ، انفصلت الثلوج وتساقطت بقوة على الارض • ويفصل جبل كنس بين ايطاليا وفرنسا •

فلما هبطت الى بيدمونت ، وهي بلاد جميلة تحيط بها الجبال من ثلاث جهات ، مررت بتورين حيث قطعت نهر البو ، وتقدمت الى استي التي تخضع لدوق اورليانز ، ثم توجهت الى الكساندرة التي يقال ان اكثر اهلها من المرابين ، ومنها الى بياكنزا الخاضعة لدوق ميلان ، واخيرا وصلت الى بولونيا لاجراسا وهي جزء من ممتلكات البابا • وكان الامبراطور سيجسمند عندئذ في بياكنزا وكان قد قدم من ميلان حيث تسلم تاجه الثاني • وكان ينوى السفر الى روما بقصد البحث عن تاج ثالث × • وكان علي عند خروجي من بولونيا ان اجتاز سلسلة جبال اخرى (وهي الابنين) وذلك لكي ادخل في اراضي فلورنسة • وفلورنسة مدينة كبيرة يحكمها الشعب • وحكامها ، يدعون " المقدمون " وينتخبون كل ثلاثة اشهر ، ويختارون من بين اصحاب مختلف المهن • ويتمتع هؤلاء ، ما داموا في وظائفهم ، بمقام عال ، ولكنهم يعودون ، حالما تنتهي مدة حكمهم ، الى اعمالهم الاولى • ثم توجهت الى قمة بولكيانو ، وهي قائمة على مرتفع ، وتحيط بها من ثلاث جهات بحيرة لاجودى بروجيا • ومن ثم ذهبت الى سبوليتو ، ثم الى قمة فياسكون ، واخيرا الى رومة •

(+) Marrons

(×) بعد ان انتخب سجسمند امبراطوراً وضع على راسه التاج الفضي في اكس لا شابل • وفي شهر نوفمبر ١٤٣١ ، قبيل قيام بروكييه برحلته ، تسلم التاج الحديدى في ميلان • ولكنه لم يتسلم التاج الذهبي من يد البابا في روما الا سنة ١٤٤٣ (رايت)

وروما غنية عن التعريف ويؤكد لنا الكتاب الثقات انها سادت العالم مدة سبعمائة سنة • لكن حتى اذا لم تكن اخبارهم برهانا ساطعا على هذه الحقيقة ، الا يكفي لاثباتها ما نراه فيها من عمائر فخمة ، واعمدة رخامية واثار وتماثيل رائعة جديرة بالوصف ؟ اضف الى هذا كله ما فيها من اثار كثيرة لمس اكثرها السيد المسيح ، وفيها اعداد كبيرة من جثث الرسل المقدسة والشهداء والقديسين ، والعذارى ، ونكتفي ، بقصد الايجاز ، بذكر كنائسها الكثيرة حيث منح الروساء الروحيون غفرانات من الذنوب • وشاهدت يوجينيوس الرابع ، وهو بندقي كان قد انتخب بابا (+)• وكان امير ساليرنو قد اعلن عليه الحرب ، وينتمي هذا الامير الى اسرة كولون كما انه ابن اخت البابا مارتن (×)•

غادرت رومة في الخامس والعشرين من اذار ، وبعد ان اجتزت مدينة خاضعة للكونت دى تلاموني ، احد اقرباء الكردينال الأرسيني ، وصلت الى اوربينو ، ومن ثم تقدمت خلال مقاطعات مالاتستاس الى ريميني ، وهي جزء من اراضي البندقية • وقطعت ثلاثة من روافد لنهر البو ، ووصلت تشيوزا ، وهي مدينة تابعة للبنادقة ، وكانت فيما سبق ميناء جيدا ، ولكنها دمرت على ايدى اهلها عندما قام اهل جنوة بمحاصرة البندقية • وسافرت من تشيوزا الى البندقية وبينهما خمسة وعشرون ميلا •

والبندقية مدينة جميلة واسعة لها ماضي عريق وشهرة تجارية • وتقوم في وسط البحر • ويفصل الماء بين احيائها المختلفة وبين الجزر المنتشرة ، ولهذا يتم الانتقال بين اجزائها بالقوارب • وفي هذه المدينة جثة القديسة هيلانه ،

(+) سترى فيما بعد ان بروكييه غادر روما في الخامس والعشرين من اذار ، وان يوجينيوس كان قد تم انتخابه في اوائل هذا الشهر • ويشك فيما اذا كان انتخابه قد تم في الثالث او الرابع او السادس من اذار • وقد احتل المركز البابوى حتى الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٤٤٧• (رايت)

(×) كان البابا مارتن الخامس ، الذى سبق يوجينيوس من اسره كولون • وكانت هناك عداوة سافرة بين اسرته واسرة اورسيني • وعندما اصبح يوجينيوس بابا اسهم في النزاع ، واتخذ جانب اسرة اورسيني ضد افراد كولون الذين كانوا اولاد اخت مارتن • فلجاء مارتن الى السلاح واعلن الحرب عليه • (رايت)

والدة الامبراطور قسطنطين ، وجثث غيرها رايتها ، واخص بالذكر منها جثث القديسين الشهداء ، وهي موجودة بتمامها . وهذه الجثث موجودة في جزيرة تدعى (مورانو) وتشتهر بصناعة الزجاج . وحكومة البندقية حكومة رشيدة : فليس في استطاعة احد ان يكون من اعضاء المجلس ، او ان يشغل اى وظيفة الا اذا كان من طبقة النبلاء ومن مواليد المدينة . ويقوم عليها دوق عليه ان يصطحب معه ، خلال النهار ، ستة من ابرز اعضاء المجلس . وعندما يتوفى الدوق ينتخب خلفه من بين اولئك الذين اظهروا معرفة كبيرة بالامور ، وحماسة زائدة للصالح العام .

وفي الثامن من شهر ايار صعدت مع حجاج اخرين الى ظهر مركب ، برا بقسمي . ولم يلبث المركب ان ابحر محاذيا ساحل سكلافونيا ، وعرج على بولا ، وزارا ، وسبينيكو ، وكورفو . وبدا لي ان بولا كانت فيما سبق مدينة جميلة منيعة ذات ميناء ممتاز . وفي زارا شاهدنا جثة القديس سيمعون الذى قدم اليه السيد المسيح من الهيكل . ويحيط البحر بالمدينة من ثلاث جهات ، كما تطوق فرضتها الجميلة سلسلة من الحديد . ومدينة سبينيكو تابعة للبندقية ولها ميناء رائع وفيها قلعتان .

وابحرنا من كورفو الى مودون ، وهي مدينة لطيفة في المورة ، وتابعة للبندقية ، وابحرنا ، من ثم ، الى كانديا ، وهي جزيرة شديدة الخصب واهلها ملاحون مهرة . وتعين حكومة البندقية حاكما لهذه الجزيرة يحمل لقب دوق ، ويحكم مدة ثلاث سنين . ثم اقلعنا الى رودس حيث لم يفسح المجال الا لالقاء نظرة سريعة على المدينة ، ثم وصلنا يافا ، وهي مدينة خربة في قبرس ، واخيرا وصلنا مدينة يافا من ارض الميعاد المقدسة .

وفي يافا تبدا الخفرانات (١) التي يكسبها الحجاج ، وكانت قوية وهي تحت حكم النصارى ، اما الان فهي خربة بالكلية لا تجد فيها سوى عدد من الخيام مغطاة بالقصب يلجاء اليها الحجاج هربا من القيظ . وينفذ البحر الى المدينة ، ويكون ميناء سيئا ضحلا يخشى على من يظل فيه مدة طويلة ان تسوقة الرياح الى الشاطىء .

وفيها ينبوعا ماء عذب • لكن البحر يطغى على احدهما حين تقوى الريح الغربية • وعند ما ينزل الحجاج في هذه المدينة يباد رعدد كبير من التراجمة وموظفي السلطان+ ليستوثقوا من عددهم وليعرضوا خدماتهم عليهم كادلاء ، ولياخذوا منهم باسم مولاهم الضريبة المعتادة (٢)•

ولا يحيط بالرملة (٣) ، وهي اول مدينة يصادفها الانسان بعد يافا ، اسوار، ولكنها مدينة تجارية عامرة تقع في منطقة ملائمة خصبة • وقد عرجنا على قرية قريبة منها استشهد فيها القديس جورج (٤)• وعند عودتنا استمررنا في طريقنا ووصلنا بعد مسير يومين كاملين الى مدينة القدس المقدسة حيث اقبل السيد المسيح على الموت من اجلنا • وبعد ان قمنا بالزيارات العادية ، زرنا الجبل الذى صام فيه المسيح اربعين يوما (٥)• وذهبنا الى الاردن حيث عمد ، ثم الى كنيسة القديس يوحنا قرب نهر الاردن •

وزرنا كنيسة القديسة مارتا والقديسة مريم المجدلية حيث اعاد السيد المسيح اليعازر الى الحياة (٦)• وذهبنا الى بيت لحم ، فزرنا مسقط راس القديس يوحنا المعمدان ، وبيت زخاريا ، واخيرا الصليب المقدس حيث كبرت الشجرة على شكل صليب حقيقي • وبعد هذا عدنا الى القدس •

وللفرنسيسكان كنيسة في بيت لحم (٧) يقيمون فيها صلواتهم ولكنهم خاضعون لحكم العرب القاسي • ولا يسكن المدينة سوى العرب وعدد من المسيحيين اصحاب(٨) الزنار× •

(+) يشير بروكييه هنا الى سلاطين مصر • فقد كانت فلسطين وسورية عندئذ خاضعتين لمصر • وسيرد ذكر السلطان فيما بعد بهذا المعنى • (رايت)

(×) امر الخليفة المتوكل في سنة ٨٥٦ ب•م بان يلبس النصارى واليهود زنانير عريضة من الجلد • واستمروا يعملون بذلك حتى الازمان الحديثة • ومنذ ذلك الوقت صار نصارى سورية ، ومعظمهم من اليعاقبة والنساطرة ، يدعون النصارى اصحاب الزنار • (رايت)

انظر تعليق المترجم •

وفي مسقط راس القديس يوحنا المعمدان صخرة انفتحت بمعجزة من نفسها اثناء فترة اضطهاد الابرياء على عهد هيرود ، وانشطرت الى جزئين (٩) ، وعندما اخفت القديسة اليصابات ابنها فيها عادت مرة اخرى الى ما كانت عليه ، وظل الطفل ، كما يقال ، داخلها يومين كاملين .

وتقوم مدينة القدس في منطقة جبلية حصينة ، وهي الان ذات شان على الرغم مما يبدو من انها كانت اعظم من قبل . وهي خاضعة للسلطان ، الامر الذى يلحق العار بالعالم المسيحي ويحزنه . ولا يوجد بين النصارى الاحرار الا راهبان من الفرنسيسكان يسكنان كنيسة القيامة ، بل ان هذين ايضا ينالهما اضطهاد العرب (١٠). واستند فيما اقول الى ما خبرته بنفسي بعد ان شهدت حادثة وقعت قبل شهرين . وفي كنيسة القيامة تقطن طوائف اخرى من النصارى كاليعاقبة والارمن والاحباش ، وهؤلاء من بلاد برسترجون ، ونصارى من اصحاب الزنار . ولكن الفرنجة يعانون من المصاعب اكثر مما يعانيه غيرهم من الطوائف الاخرى (١١).

وعندما انتهينا من هذه الزيارات قمنا بزيارة اخرى ، تجرى في العادة ، للقديسة كاترينة على جبل سينا (١٢). وشكلنا لهذا الغرض جماعة تضم عشرة حجاج وهم : السر اندريه دى تولونجيون ، والسير ميشيل دى لين ، وجيوم دى لين واخوه سانسون دى لا لين ، وبيير دى فودرى ، وجود فروى دى تواسي ، وهمبرت بوفارت ، وجان دى لارو ، وسيمونت (+) ، وكاتب هذه السطور .

وساضيف الى هذا ، خدمة لامثالي من الذين يرغبون في زيارة هذه البلاد ، ان العادة المالوفة تقضي بالاتصال بكبير التراجمة في القدس الذى ياخذ ضريبة باسم السلطان ، وضريبة لنفسه ، ويرسل بعد ذلك خبرا للمترجم في غزة ، ويقوم هذا

(+) ترك اسم العائلة في الاصل . وترينا هذه الاسماء التي تدل الخمسة الاولى منها على اسماء حكام مقاطعات في دوقية برغندية ، على ان عددا من رجالات بلاط الدوق قد اتفقوا على الحج معا الى فلسطين . ومن المحتمل ان يكونوا ابحروا مع بروكييه من البندقية على الرغم من انه لم يذكر اسماءهم قبل ذلك . وكان تولنجيون قد رسم فارسا من فرسان الجزة الذهبية في السنة ذاتها ١٤٣٢ ولكنه لم يدخل في هذه الطبقة لانه كان عندئذ حاجا وتوفي في الطريق .

بدوره بترتيب امر المرور مع اعراب الصحراء • ولهولاء العرب حق مرافقة الحجاج • وبما ان هولاء لا يخضعون للسلطان بصورة دائمة ، فقد فرضوا (على الحجاج) استخدام جمالهم ، ويتقاضون مبلغ عشر دوكات اجرا عن كل شخص • ويدعى كبير التراجمة الحالي نانخاردن ، واذ تلقى جوابا من الاعراب ، فقد جمعنا امام الكنيسة الواقعة الى شمالي مدخل القبر المقدس • وقام بعد ذلك بتدوين اعمارنا واسمائنا والقابنا واوصافنا بالدقة والتفصيل ، وارسل نسخة عما دونه الى كبير التراجمة في القاهرة • وتوخذ هذه الاحتياطات للمحافظة على المسافرين ، ولمنع العرب من حبس احدهم • ولكني على يقين من ان هناك دافعا اخر يحفزهم الى هذا ، وهو عدم الثقة ، والخوف من حصول تغيير وتبديل قد يحرمهم من الضريبة • وقبيل سفرنا اشترينا نبيذا وقدرا من المونة ، باستثناء البسكويت الذى كان متوفرا في غزة • ولما كان نانخاردن قد جهز لنا الحمير والبغال لنقلنا ونقل مونتنا ، واعد لنا ترجمانا يرافقنا ، فقد بدانا رحلتنا •

واول مكان صادفناه هو قرية كانت اكثر اهمية فيما سبق ، ويسكنها حاليا مسيحيون من اصحاب الزنار يزرعون الكرمة • ثم وصلنا مدينة تدعى الخليل ، وتقع في وادى الخليل حيث خلق الرب ابانا ادم • وفي هذه المدينة قبر يضم ابراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم • ولكنه الان جزء من جامع للعرب (١٣)• وقد كنا نرغب كثيرا في رويته ، بل تقدمنا الى بوابته ، ولكن الادلاء والترجمان اكدوا لنا انهم لا يجرؤون على تحمل مسئولية ادخالنا فيه نهارا بسبب ما ينطوى عليه عملهم من خطر ، ولان كل مسيحي يوجد داخل الجامع يقتل في الحال ما لم يتبرأ من دينه • وبعد ان اجتزنا وادى الخليل قطعنا اخر اكثر اتساعا • وقد اشار بعضهم الى جبل يقوم الى جانب هذا الوادى وشهد توبة القديس يوحنا (١٤)• ومن ثم قطعنا ارضا صحراوية وقضينا الليل في خان بناه احد المحسنين (١٥) ، ثم توجهنا الى غزة •

وتقوم غزة في بقعة جميلة قرب البحر ، وعلى مدخل الصحراء • وهي مدينة قوية مع انها غير مسورة (١٦) • ويزعمون انها كانت مدينة شمشون المشهور ، فلا يزال فيها قصره • وبعض اعمدة المعبد الذى هدمه • ولكني لا اجرؤ على التاكيد بانها هي نفس الاعمدة • ويعامل الحجاج هنا بقسوة ، ولولا ان نائب البلد (١٧) الجركسي ، وهو رجل في الستين من عمره ، استمع الى ظلاماتنا لاصابنا ما يصيبهم وقد اضطررنا الى المثول امام هذا الحاكم ثلاث مرات • اما المرة الاولى فقد حدثت بسبب السيوف التي كنا نتقلدها ، وظهرنا امامه في المرتين الاخريين بسبب المشاجرات التي كان المكارة العرب يتقصدون اثارتها معنا • ورغب كثيرون منا في شراء حمير ، لان الجمل يهتز بعنف ينهك من لم يعتد ركوبه • ويباع الحمار في غزة بدوكتين ، غير ان المكارة لم يكتفوا بمنعنا من الشراء ، بل ارادوا ان يجبرونا على ان نستاجر حميرا منهم ، اجر كل منها خمس دوكات ، مقابل حملنا الى دير القديسة كاترينا • وقد اوقفنا الحاكم على هذه المضايقات • اما انا ، فقد كنت حتى الان اركب الجمل ، فلم اكن انوى استبداله ، الا انني كنت ارغب في معرفة كيفية ركوب الجمل والحمار في الوقت ذاته • وكان قرار الحاكم في صالحنا ، فمنع الناس من اجبارنا على استئجار الحمير من المكارة على الرغم منا • وجمعنا هنا المون الطازجة الضرورية لمواصلة رحلتنا ، لكن اربعة من رفاقي الم بهم المرض عشية السفر وعادوا الى القدس • فواصلت سفرى مع الخمسة الاخرين ، وصلنا قرية تقع في مدخل الصحراء (١٨) وهي القرية الوحيدة القائمة بين غزة ودير القديسة كاترينة (١٩)• وهنا تركنا ايضا السير سانسون دى ليلنج وقفل راجعا • فاصبح رجال رحلتنا هم السير اندرودى تولنجيون ، وبيير دى فودرى ، وجود فروى دى تواسي ، وجان دى لارو ، وكاتب هذه السطور •

وهكذا ظللنا سائرين طيلة يومين في الصحراء ، لا نرى شيئا يستحق الذكر ، باستثناء حيوان (٢٠) رايته صبيحة احد الايام يجرى على اربع ويبلغ طوله ثلاثة اقدام ، ولكن ارتفاعه لا يتجاوز طول الكف • وهرب العرب عندما راوه واسرع الحيوان واختفى في شجرة قريبة • فاخذ يصرخ كالقطة عندما يقترب منها كلب •

فضربه ببير على ظهره براس سيفه فلم يلحق به اى اذى بسبب ما يغطيه من زوائد كزوائد السمك البحرى • ثم وثب على السير اند رو فطعنه هذا بسيفه طعنة قطعت جزءً من رقبته ، ثم قلبه حتى استقر على ظهره ورجلاه مرفوعتان في الهواء • واجهز عليه • ويشبه راسه راس ارنب برى كبير ، اما رجلاه ويداه فتشبهان اطراف الطفل الصغير وله ذنب طويل جميل يشبه ذنب السحلية الكبيرة الخضراء • واخبرنا المترجم ومن كان يرافقنا من العرب بانه حيوان شديد الخطر (+) •

واعترتني عند نهاية اليوم الثاني من رحلتنا حمى شديدة اعاقتني عن مواصلة السفر • وقام رفاقي الاربعة الذين احزنهم ما حل بي بتوصية عربي بي وعهدوا اليه بارجاعي ، اذا امكن ذلك ، الى غزة • وقد بالغ هذا العربي في الاعتناء بي ، وهو امر غريب لا يتوقعه النصراني • فقد رافقني بامانة واخذني في المساء لاقضي الليل في احد خيام العرب التي ينوف عددها عن الثمانين ، وتشبه في تنظيمها شكل الشارع • وتقام الخيمة بنصب عمودين بينهما مسافة ، ثم يوصلان بعمود ثالث ويلقى على الاخير قطعة من الصوف او الشعر • وعند وصولي هرع لاستقبالنا اربعة او خمسة من العرب ممن كانوا على معرفة بصاحبي • فانزلوني عن حماري ووضعوني على حشية كانت معي • ثم عاملوني كما يفعلون في العادة ، فاخذوا يفركون جسمي ويدلكونه بشدة (×) حتى غلب على التعب والاعياء فنمت ست ساعات • وفي هذه الاثناء لم يصبني اى اذى ولم يسرق من امتعتي شيء • وكان من السهل عليهم ان يفعلوا شيئا من هذا القبيل لو ارادوا ، ولا بد انني كنت فريسة مغرية ، اذ كان معي مئتا دوكة ، وجملان محملان بالمونة والنبيذ •

(+) يظهر من هذا الوصف الغامض ان الحيوان هو سحلية كبيرة [illegible] ويدعى (مونيتور) اذ ان اقترابه يشبه اقتراب التمساح • وهو يكثر في الفرات حيث يبلغ طوله احيانا اربعة او خمسة اقدام • اما خوف العرب منه فلا مبرر له • (رايت)

(×) يشبه هذا ما نسميه بالفرنسية المساج • وهي عملية شائعة في بعض انحاء الشرق لمداواة بعض الامراض الخفيفة •

وبدات سفرى الى غزة قبل طلوع الفجر ، وعند ما وصلتها لم اجد احدا من رفاقي الذين كانوا قد تخلفوا هناك ، كما اني لم اجد السير سانسون دى ليلنج . فقد كان الخمسة قد عادوا الى القدس يرافقهم الترجمان . ولحسن الحظ التقيت بيهودى صقلي استطعت ان أتفاهم معه ، فارسل لي سامريا استطاع ان يخفف عني وطاة الحر بما قدم لي من ادوية . واذ تحسنت حالي بعد يومين سافرت برفقة عربي دلني على طريق محاذية للساحل فمررنا قرب عسقلان (٢١) ، ومن ثم اجتزنا بقعة خصبة الى الرملة ، ومن هناك استانفت سيرى الى القدس .

وخلال اليوم الاول من رحلتي قابلت في الطريق حاكم الرملة عائدا من زيارة له وبرفقته خمسون خيالا ومئة جمل اكثر راكبيها من النساء والاطفال الذين رافقوه في زيارته . فقضيت الليل معهم . وفي اليوم التالي اقمت بعد وصولي القدس مع الفرنسيسكان في كنيسة جبل صهيون (٢٢) ، حيث التقيت مرة اخرى برفاقي الخمسة .

وبادرت حين وصولي الى سريرى لا تخلص مما اصابني من مرض . ولكني لم ابل من مرضي ، ولم اصبح في حالة تمكنني من السفر حتى التاسع عشر من اب . وتذكرت خلال دور النقاهة ما كنت قد سمعته من ان النصراني لا يستطيع الرجوع من القدس الى فرنسا بطريق البر . ولا اجرؤ ، حتى الان ، وقد قمت بهذه الرحلة ، ان اوكد انها خالية من الاخطار . ومع هذا ظننت انه لا يوجد شيء يستحيل تنفيذه على رجل قوى البنية بحيث يحتمل التعب ولديه المال والعافية . ولا ازجي هذا القول على سبيل الفخر ، ولكني ساقوم بهذه الرحلة معتمدا على معونة الرب وامه المجيدة اللذين يساعدان من يصلي لهما بخشوع . وقد ابقيت هذا المشروع سرا فلم اشر اليه حتى امام رفاقي . وكنت ارغب كذلك ، قبل تحقيق تلك الرحلة ، القيام بزيارات اخرى وخاصة الى الناصرة وجبل طابور . فذهبت لاطلع نانخارون ، كبير تراجمة السلطان ، على نواياى . فاحضر لي ترجمانا يرافقني خلال رحلتي . وبدا لي ان ابدأ بزيارة جبل طابور ، وجهزت كل شيء لهذا الغرض . الا ان رئيس

الدير الذى كنت مقيما فيه صرفني عن ذلك ، وابدى معارضة شديدة له . كما ان الترجمان ، وكان بجانب رئيس الدير ، رفض مرافقتي قائلا بان احدا من التراجمة لن يقبل مرافقتي في مثل تلك الظروف ، لان طريقنا تسير في اراضي مدن متحاربة ، وان بندقيا وترجمانه قتلا اثناء اجتيازها . ولهذا فقد اقتصرت على القيام بالزيارة الاخرى التي كان السير سانسون دى ليلنج وهمبرت يرغبان في تحقيقها معي . فتركنا السير ميشيل دى لين مريضا على جبل صهيون . وكان اخوه يقوم بمساعدة خادمه على رعايته . وسافرنا في منتصف شهر اب . وكنا ننوى ان نذهب الى يافا بطريق الرملة ، ومن هناك الى الناصرة . فتوجهت قبيل تحركنا الى قبر العذراء . وتضرعت اليها ان تحميني خلال رحلتي المحفوفة بالخطر الى بلادى . فتناهت الى سمعي اصوات الفرنسيسكان وهم يقومون بصلواتهم ، وشاهدت اناسا يدعون بانهم من النصارى ، لكن بعضهم لم يبد لي انهم منهم .

وتلطف معنا رئيس الرهبان في القدس (٢٣) الى حد انه رافقنا حتى يافا بصحبة راهب فرنسيسكاني من دير بون . الا انه تركنا في يافا مع صاحبه . فاتفقنا مع العرب على نقلنا الى ميناء عكا (٢٤). وهو ميناء صالح لرسوا السفن عميق ومسور . ويستدل من مظهر المدينة انها كانت فيما مضى اكثر اتساعا ومنعة . اذ لا تضم اليوم اكثر من ثلاثمئة بيت قائمة على احد اطراف المدينة وعلى مسافة من البحر .

اما فيما يختص بزيارتنا فلم نتمكن من القيام بها . فقد اقنعنا بعض التجار البنادقة الذين استشرناهم في الامر بالعدول عنها . واخبرونا في الوقت نفسه بانه ينتظر وصول سفينة قادمة من ناربون الى بيروت . ولما كان رفاقي يرغبون في انتهاز هذه الفرصة للرجوع الى فرانسا ، فقد واصلنا سفرنا الى بيروت . ومررنا ، في طريقنا اليها بصور (+) ، وهي مدينة مسورة (٢٥) ، ذات ميناء تجارى صالح ، ثم مررنا بصيدا ولها

(+) ما يقوله بروكيير هنا مفيد من الناحية الجغرافية . فهذا يثبت ان جميع موانىء سورية ، التي كانت من قبل ذات شهرة تجارية عظيمة ، اصبحت في هذا الوقت مهجورة خربة ، تستخدم في الغالب للتجارة (رايت)

ميناء صالح كذلك (٢٦)

وكانت مدينة بيروت (٢٧) فيما مضى اعظم شانا • لكن ميناءها صالح للتجارة ، ومياهه عميقة ، والسفن التي تومه تامن فيه من الخطر • ويشاهد على احد اطرافه بقايا قلعة حصينة كانت قائمة فيما مضى ، اما الان فهي خرائب • اما انا شخصيا ، فقد كان يشغلني امر رحلتي العظيمة • وعلى هذا فقد صرفت الوقت هنا اجمع ما يفيدني من معلومات عنها • فتعرفت لهذا الغرض على تاجر بندقي يدعى جاك بوفيزين • فنصحني بالسفر الى دمشق ، مؤكدا لي انني ساجد هناك تجارا من البندقية وقطالونية وفلورنسة وجنوة وغيرها ممن قد تفيدني آراوهم (بصدد عودتي الى اوروبا) • بل لقد اعطاني كتاب توصية لاحد مواطنيه واسمه اتوبون اسكوت • ولما كنت عازما على استشارة اسكوت قبل مواصلة سفري ، فقد اقترحت على السير سانسون ان نسافر الى دمشق • ولكني لم اطلعه على مشروع رحلتي (الى بلادي) • فوافق على اقتراحي بسرور ، وهكذا بدانا سفرنا تحت ارشاد المكاري • وكنت قد اشرت الى ان هولاء المكارة في سورية ، هم الذين يرشدون المسافرين ويستاجرون لهم الحمير والبغال • وكان علينا ، عند خروجنا من بيروت ، ان نجتاز جبالا (٢٨) عالية تفضي بنا الى سهل طويل يسمى وادي نوح • وسمي كذلك بسبب ما قيل من ان نوحا بنى سفينته فيه • ولا يتجاوز عرضه ، في اوسع نواحيه ، ثلاثة اميال ، لكنه سهل عامر خصب ، يرويه نهران ويسكنه العرب (٢٩) • وكانت طريقنا حتى دمشق تسير بين جبال تقوم عند قواعدها قرى كثيرة وبساتين الكرمة • وانصح لمن سيقوم بمثل رحلتي ان يحتاط لنفسه خلال الليل ، بسبب شدة برودة الجو التي تحدث بسبب سقوط الندى (+) • ويحدث الشيء نفسه في سورية كلها • وكلما اشتد الحر خلال النهار كلما ازداد الندى واشتد البرد في الليل •

وتستغرق الرحلة من بيروت الى دمشق يومين • والعادة المتبعة عند المسلمين تجاه النصارى في جميع انحاء سوريا هي انه لا يسمح لنصراني بدخول دمشق راكبا • فلا يجرؤ نصراني على دخولها الا ماشيا • وعلى هذا فقد قام المكاري

(+) يرجح ان البرد حدث نتيجة لصعود جبال لبنان • (رايت)

بانزالنا ، انا والسير سانسون ، قبل دخول المدينة . ولم نكد ندخلها حتى هرع الى اثنا عشر عربيا التفوا حولنا لمشاهدتنا . وكنت البسر قبعة ذات اطار عريض لم يعتد اهل البلاد رؤية مثلها . فرفع أحدهم عصا كانت بيده واطاح بها عن راسي . (+) والحق اني هممت بان الطمه بجمع يدى لولا ان المكارى وقف بيننا ودفعني جانبا . وجاء عمله هذا من حسن حظي . اذ ان حوالي ثلاثين او اربعين شخصا احاطوا بنا في الحال . ولا ادرى ما الذى كان سيحل بي لو انني لطمته . واورد هذه الحادثة لابين ان سكان دمشق قوم اشرار يجب على الانسان ان يحتاط لنفسه بينهم . ويحدث مثل هذا في جميع بلاد المسلمين . وثبت لي بالتجربة ، ان على الانسان ان يتجنب المزاح معهم ، والا يبدو خائفا او فقيرا اذ يصبح هدفا لاحتقارهم . وعليه الا يتظاهر بالغنى لانهم شديدو الجشع ، كما يعرف جميع من نزلوا في يافا وتكلفوا مبالغ باهظة .

ويبلغ عدد أهل الشام ، كما سمعت مئة الف نسمة (٣٠) . وهي مدينة غنية ومركز تجارى ، كما انها ثاني مدينة في السلطنة بعد القاهرة . ويحف بها من الشمال والجنوب سهل واسع . وفي غربيها جبل قامت على سفوحه ضواحيها (٣١) . ويشق المدينة نهر تتفرع منه مجارى عدة . وتحيط الاسوار بالمدينة دون الضواحي ، وذلك لكبر الضواحي واتساعها . ولم ار اوسع من بساتينها ، ولا افضل من فواكهها ، ولا اوفر من مياهها . ويقال ان مياهها متوفرة الى درجة تسمح بوجود نافورة في كل بيت . وحاكم دمشق نائب للسلطان (٣٢) . لكن السلاطين عملوا على كبح جماح الحكام وابقائهم تحت امرتهم بسبب ما قاموا به من ثورات . وفي دمشق قلعة حصينة تقوم على احد جوانبها قرب الجبل . وتحف بها الخنادق ، ويعين السلطان للقلعة نائبا ولا يسمح لنائب الشام بدخولها (٣٣) وخربت القلعة في سنة ١٤٠٠م على يد تيمورلنك ، ولا تزال اثار التخريب ظاهرة . ويقوم بجانب بوابة القديس بولس حي كامل لم يعد بناؤه حتى الان . وفي المدينة خان مخصص للودائع ، ولتامين راحة التجار وايداع

(+) لم يتخلص اهل دمشق من تعصبهم ضد القبعات السوداء الا حديثا (رايت)

بضائعهم ، ويدعى خان (٣٣) بركوت (+) ، لانه كان في الاصل بيتا لرجل يحمل هذا الاسم ، واظنه فرنسيا . وقد حملني على هذا الظن وجود عبارة "زهرة الزئبق" منقوشة على احد احجار البيت . ويبدو هذا النقش قديما قدم الجدران . ومهما يكن اصل هذا الرجل ، فقد كان شهما ، ولا يزال يتمتع بسمعة طيبة في هذه البلاد . ولم تقو جيوش الفرس والتتر ، خلال حياته ، ان تنتزع اى قطعة من الاراضي السورية . اذ كان يخف لملاقاة جيوشهم ويلاحقهم حتى الى ما وراء حلب عند النهر الفاصل بين سورية وفارس . واستطيع ان استنتج ان هذا النهر هو نهر جيحون (×) الذى يصب في بلاد التركمان . وقد وقر في ذهن اهل الشام انه لو مد في اجله لما تمكن تيمورلنك من دخول بلادهم . وعلى اى حال فقد امر تيمورلنك عند ما حرق الشام بالابقاء على بيت بركوت (٣٤) ، واقامة حارس ليحفظه من امتداد السنة اللهب اليه ، الامر الذى حفظ البيت ، ودل على مروءة تيمورلنك (٣٥).

واهل دمشق يكرهون النصارى . ويلجاء التجار الاوروبيون الى بيوتهم في المساء ، ويقفلها عليهم اناس معينون لهذا الغرض ، ويفتحونها في صباح اليوم التالي عند ما يروق لهم ذلك . ولقيت في دمشق كثيرين من تجار جنوة والبندقية وكلابريا وفلورنسة وفرانسا . وقد جاء تجار فرانسا لشراء مختلف الاشياء ، وخاصة التوابل ، وينوون نقلها الى بلادهم بطريق بيروت (٣٦) في السفينة القادمة من فاريون . وبين هؤلاء التجار جاك كور (×) الذى قام باعمال عظيمة في فرانسا ، وكان يشرف على ملابس الملك . وقد اخبرني بان السفينة كانت اذ ذاك في ميناء الاسكندرية ، وان السير اندرو ورفاقه الثلاثة سيركبونها من بيروت .

(+) قد يدعو هذا التفسير الى الشك ، فبير في العربية تدل على البئر ، وكوت كلمة عربية كثيرا ما توجد في اسماء الاماكن مثل كوت الامارة الخ . (رايت)

(×) لا شك ان دى لا بروكيبه يعني الفرات (رايت)

وقد رايت خارج اسوار الشام المكان الذى تمثل فيه القديس بولس الرؤيا (٣٧) ، فغشي على بصره ، والقي من على ظهر حصانه . وطلب ان ينقل الى دمشق حيث عمد ، لكن المكان الذى جرى فيه تعميده جزء من جامع للمسلمين . وشاهدت كذلك الحجر الذى اعتلاه القديس جورج ليمتطى صهوة جواده عندما ذهب لمقاتلة التنين . ويبلغ الحجر قدمين مربعين ، ويقال انه عندما حاول العرب اول مرة نقله لم ينجحوا رغم ما بذلوا من جهد .

وبعد ان شاهدنا دمشق رجعت مع السير سانسون الى بيروت ، وهناك لقينا السير اندرو ، وبيير فودرى ، وجيوفروى دى توازى ، وجاك دى لارو ، الذى كان قدم الى هنا ، كما اخبرنا جاك كور . ووصلت السفينة قادمة من الاسكندرية بعد يومين او ثلاثة . ورايت خلال هذه الفترة الوجيزة المسلمين يحتفلون بعيدهم على طريقتهم التقليدية . بدا الاحتفال مساء عند الغروب ، فاخذت جماعاتهم تسير هنا وهناك فرحة بالعيد تهزج بالاناشيد . واخذت مدافع القلعة تطلق قذائفها ، واخذ الناس يطلقون عاليا في الفضاء صواريخ يفوق حجم الواحدة منها حجم اكبر فانوس عرفته . وقد اخبرت انهم يستخدمونها ايضا اشعال النار في اشرعة سفن أعدائهم وهي في عرض البحر (٣٨). ويبدو لي انها تصلح لحرق المعسكرات والقرى المؤلفة من بيوت خشبية ، ولبث الذعر بين خيول الاعداء في الحرب ، وذلك لسهولة صنعها ويسر تكاليفها . ولما كنت شديد الرغبة في الوقوف على سر صنع هذه المقذوفات فقد ارسلت احد خدم مضيفي الى واحد ممن يصنعونها يطلب منه ان يوقفني على طريقة تركيبها . فاعتذر بانه لا يجرؤ على ذلك لما يكتنف مثل هذا العمل من مخاطر فيما اذا افتضح الامر . غير انه لما كان العربي لا يحجم عن فعل شيء اذا دفع له المال فقد اطلعني على السر عندما دفعت له دوكة ذهبت بمخاوفه ، بل لقد اعطاني قوالب صنعها ، والمواد التي تتركب منها ، ومواد أخرى صنعها فحملتها معى الى فرنسا .

وفي عشية السفر خلوت بالسير اندرو دى تولونجيون وبعد ان حملته على ان يعد بالا يعارض فيما سأطلعه عليه ، كشفت له الخطة التي وضعتها للرجوع

الى بلادي . فلم يبد اية معارضة ولكنه اوضح لي الاخطار التي ستواجهني ، وذكر اني مقدم على مغامرة قد اضطر بسببها الى نبذ عقيدتي النصرانية . ولا يسعني الا الاعتراف بان ما قاله كان له ما يبرره . اما المخاطر التي عددها فقد سبق لي ان اجتزتها ما عدا خطر الخرق على الدين . ثم استعان بزملائه ليحدثوني في هذا الموضوع . ولكنهم عبثا حاولوا ارجاعي عما اعتزمته ، ورضيت عن سفرهم ، وظللت في بيروت .

وعقب رحيلهم قمت بزيارة جامع كان في الاصل كنيسة جميلة بنتها كما يقال القديسة بربارة (٣٩) . ويضيف بعضهم الى ذلك انه عندما استولى عليها المسلمون وصعد مؤذنوهم البرج ضربوا ضربا جعلهم لا يعودون اليه . وهناك ايضا بناية عجيبة اخرى يقال انها حولت الى كنيسة وكانت في الاصل في حوزة اليهود . وذات يوم ، عثر هؤلاء على تمثال للرب ، فجعلوا يقذفونه بالحجارة كما فعل اباؤهم قبلا بالمسيح نفسه . لكن اخذت الدماء تنزف من التمثال ، فهربوا ، واعترفوا بما فعلوا امام الاسقف بل لقد اعطوا بيتهم تكفيرا عما اقترفوا . فحول البيت الى كنيسة يقوم على امرها الفرنسيسكان في الوقت الحاضر (٤٠) .

ونزلت ، خلال اقامتي ببيروت في بيت تاجر بندقي يدعى بول بربريكو . واذ كنت لا ازال ارغب في زيارة الناصرة وجبل طابور رغم العقبات التي قيل انني ساصادفها ، فقد استشرته في امر هذه الرحلة المزدوجة . فاعد لي مكاريا ليقوم بارشادي . وتعهد هذا امام بول بان يوصلنا سالمين الى دمشق وان يحمل معه عند رجوعه شهادة ممهورة بامضائي تشهد بانه قام بمهمته . فحملني هذا الرجل على ارتداء لباس عربي . اذ كان الفرنج قد حصلوا على اذن من السلطان بارتداء الملابس العربية خلال سفرهم .

وفي اليوم التالي وبعد ان اقلعت السفينة غادرت بيروت بصحبة المكاري ، وسلكنا الى صيدا طريقا تسير بين البحر والجبال . وكثيرا ما تنفذ الجبال الى البحر بشكل يوجب على المسافرين ان يلازموا الرمال . ويحدث احيانا ان تدخل الجبال مسافة

ثلاثة ارباع فرسخ في البحر. وبعد مسير ساعة وصلنا حرشا تقوم فيه اشجار الصنوبر السامقة التي تنال الكثير من عناية السكان . بل لقد حظر قطع اى منها لسبب لا اعلمه . ووصلنا بعد ذلك الى نهر متوسط العمق ذكر المكارى بانه ينبع من وادى نوح ، الا ان مياهه لا تصلح للشرب (٤١). ويقوم على النهر جسر بني من الحجر ، وبتنا في خان قريب . وفي اليوم التالي وصلنا صيدا ، وتقع صيدا قرب البحر . وتحيط بها من ناحية البر خنادق غير عميقة . ولصور موقع مشابه ، وتستمد مياهها العذبة من ينبوع يبعد ثلاثة ارباع الميل الى جنوب المدينة بطريق قناة حفرت لهذا الغرض . وقد مررت بها فقط ، وتبدو صور جميلة على الرغم من انها ليست اقوى ولا امنع من صيدا . وقد امتدت يد التخريب من قبل الى المدينتين كما يبدو من اسوارهما التي لا تقارن بحال باسوار مدننا (في اوروبا) . ويولف الجبل بجانب صور هلالا يمتد قرناه الى البحر ، والفراغ بينهما لا تقوم فيه القرى على الرغم من وجود عدد منها على سفوح الجبل . وبعد مسيرة فرسخ وصلنا الى ممر اضطررنا الى المسير على احدى حافتيه ، ويقوم في اعلاها برج . وليس امام المسافرين الى عكا طريق غير هذه ، وكان البرج قد اقيم للسهر على سلامتهم . وتعترض الطريق من هذا الشعب حتى عكا جبال واطئة ، وتمكن روية كثير من بيوت السكان الذين يتالف غالبيتهم من العرب . ولقيت بجانب المدينة سيدا كبيرا من اهل البلاد يدعى فانكارون ، وكان مقيما في وسط السهل ويحمل خيامه معه .

ومع ان عكا تقوم في سهل يبلغ اتساعه اربعة فراسخ ، الا انها محاطة بالجبال من ثلاث جهات ، وبالبحر من الجهة الاخرى . وقد تعرفت هناك بتاجر بندقي يدعى (البرت فرانك) احسن وفادتي ، وزودني بمعلومات نافعة فيما يختص بزيارتي الى الناصرة افادتني فيما بعد . وعملا بنصائحه سلكت الطريق الى الناصرة ، وبعد ان اجتزت سهلا واسعا وصلت ينبوعا غير السيد المسيح مياهه الى نبيذ في زواج (ارخيرتكلن) (٤٢) . ويقوم هذا الينبوع قرب قرية يقال ان القديس بطرس ولد فيها .

والناصرة (٤٣) قرية اخرى كبيرة واقعة بين جبلين • لكن المكان ، الذى هبط فيه جبريل يبلغ العذراء انها ستصبح اما ، في حالة يرثى لها • والكنيسة التي كانت قد بنيت هناك اتى الخراب عليها كلها ولم يبق اى اثر للبيت الذى ظهر فيه جبريل للعذراء •

وقد مشيت من الناصرة الى جبل طابور حيث تجلى الرب وحدثت كثير من الكرامات • وتجتذب مراعيه العرب الذى يفدون عليها لرعي ماشيتهم ، وقد اجبرت على ان اصطحب معي اربعة اخرين بينهما عربيان • وصعود الجبل صعب لعدم وجود طريق واضحة المعالم ، وقد صعدته على بغل في مدة ساعتين • وتنتهي قمة الجبل الى سهل يبلغ طوله ضعف مدى مرمى السهم ، وعرضه نصف ذلك • وكانت هذه القمة ، فيما سبق ، محاطة بالاسوار ، ويمكن مشاهدة بقاياها ، واثار خنادقها • وكانت تقوم في داخل الاسوار وخارجها كنائس • وفي واحدة منها على الرغم من انها ليست الا خرائب يمكن الحصول على غفران الرذيلة والذنوب (٤٤)•

ولاحت لنا شرقي جبل طابور وعند قاعدته طبرية التي يجرى خلفها نهر الاردن • والى غرب الجبل يمتد سهل واسع خصب عامر بالبساتين وتزرع فيه اشجار النخيل ، وتقوم فيه اشجار قصيرة اشبه بشجر الكرمة ينمو عليها القطن • وبعكس القطن عند الصبح منظرا فريدا • وعندما يرى المسافر الاوراق الخضراء مغطاة بالقطن (٤٥) يحسب انها متوجة بالثلوج (+)• وقد دخلت هذا السهل لتناول العشاء لانني كنت قد حملت معي النبيذ والدجاج • وقد دلني من اصطحبتهم لارشادى على بيت رجل لم يكد يرى ما احمله من نبيذ حتى حسبني شخصية كبيرة فاحسن وفادتي • فقدم لي وعاء فيه لبن ، واخر فيه عسل ، وعنقودا من البلح كان اول ما شاهدته طوال حياتي •

(+) يرجح ان بروكيير قد اخطأ • فشجرة القطن تشبه الكرمة من حيث اوراقها ، لكن القطن يتجمع في اعلقة لا على الأوراق • فتوجد اشجار كثيرة يكسوها من الخارج زغب ابيض ، ولكنها في هذه الحالة لا تنتج القطن • (رايت)

وشاهدت كذلك طريقة صنع القطن التي يقوم بها الرجال والنساء . وفي هذه الاثناء حاول الادلاء ان يبتزوا نقودا اخرى مني ، فالحوا في ان اعيد النظر فيما اتفقت عليه معهم من اجر ، مقابل اعادتي الى الناصرة . ومن حسن حظي ان سيفي لم يكن معي . فلو كان معي لكنت جردته عليهم . ومثل هذا العمل لا يقدم عليه الا مجنون في مثل تلك الظروف . واسفر النزاع عن اعطائي لهم مبلغ ١٢ دراخمة من نوع عملتهم ، اى ما يساوى نصف دوكة . وفي اللحظة التي تسلموها مني تركني اربعة ادلاء مما اضطرني الى العودة مع المكارى فقط .

ولم نكد نبتعد في سيرنا حتى راينا عربيين مسلحين على الطريقة المالوفة ، ويركبان حصانين جميلين ، مقبلين علينا . فذعر المكارى ، ولكنهما ، لحسن الحظ ، مرا دون ان ينبسا ببنت شفة . وقد ذكر المكارى بعد ذلك انهما لو اشتبها في امرى وعرفا انني نصراني لقتلانا دون رحمة ، او على الاقل لجردانا من ملابسنا . وكان كل منهما يحمل دبوسا طويلا رفيعا ملبسا طرفاه بالحديد ، واحدى نهايتيه مدببة والاخرى مستديرة تحمل نصالا طول الواحد منها شبر . وكان ترس الواحد منهما مستديرا ، كما هي الحال في العادة ، محدبا في الوسط ، ويقوم في وسطه سن من الحديد . وكان الترس من ذلك السن حتى نهايته السفلى مزينا بحاشية من الحرير . وكانا يلبسان قبائين عرض الواحد من اكمامهما قدم ونصف ، وتتدلى اكمامهما على سواعد الرجلين . وبدلا من القبعة كان يلبس كل منهما على راسه كلوته مستديرة تنتهي بقطعة من الصوف القرمزى الخشن ، وبدلا من ان تكون الكلوتة محاطة بقطعة من القماش كعادة العرب فان قطعة الصوف تتدلى على جوانب الراس (+)

وذهبنا الى (السامرة × ٤٦) للمبيت وذلك بسبب رغبتي في مشاهدة بحيرة طبرية حيث يقال ان القديس بطرس اعتاد ان يصطاد السمك ، الامر الذى يترتب عليه حصولي على بعض الغفرانات وقد تركني المكارى طوال ذلك اليوم . وتقوم (السامرة) عند قاعدة جبل لان هذا الاسبوع هو اشد اسابيع ايلول (تشرين الاول) قيظا . وقد دخلنا طبرية عند الغروب وتركناها عند منتصف الليل بقصد زيارة البحيرة . وكان المكارى قد اقترح على ان نسافر في تلك الساعة لنتخلص من دفع الضريبة التي يدفعها كل من

(+) انظر المقدمة ص١٨ (المترجم)

(×) يقصد طبرية . (المترجم)

يمر بذلك المكان • الا ان الظلام حال دون رؤية ما حولي • فقصدت اولا الى جب يوسف (٤٧) • وقد سمي بهذا الاسم لان اخوة يوسف القوه فيه • ويقوم بقربه جامع جميل ، دخلته مع المكاري متظاهرا بانني عربي • ووصلنا بعد ذلك جسرا من الحجر يسمى جسر يعقوب نسبة الى بيت قريب يزعمون انه كان محل اقامة البطريق يعقوب • ويخرج النهر من بحيرة عظيمة عند قاعدة جبل في الشمال الغربي اقام عليه نامقارون قلعة رائعة • ومن البحيرة سلكت الطريق الى دمشق • فاخترقت بلادا تسر الناظرين ومع ان الطريق تسير بين الجبال ، الا ان هذه الاخيرة تترك بينها فجوة يبلغ عرضها فرسخين • ويمر المسافر على اى حال ببقعة ضيقة الى حد لا تتسع فيه الطريق الا للحصان • ويحف بالطريق من اليمين والشمال مسافة فرسخ طولا وفرسخ عرضا حجارة هائلة من الصوان كانها تقاقيع على مياه النهر ، واكثر حجارتها تفوق في حجمها حجم زق الخمرة • وخلف هذا الممر خان صالح للمبيت يحيط به الينابيع والجداول • وعلى بعد اربعة اميال او خمسة من الشام خان اخر ، وهو من اعظم ما رايت ، ويقوم الى جانب نهر صغير يتكون من التقاء ينابيع كثيرة في تلك البقعة • وكلما دنوت من المدينة كلما اشتد اعجابك بجمال البلاد •

والتقيت قرب دمشق بعربي شديد السواد كان قد وصل من القاهرة على جمل بعد مسيرة ثمانية ايام مع ان المسافة تقطع في العادة في ستة عشر يوما • وكان جمله قد هرب منه ، فساعدناه في استرجاعه • ولهؤلاء الرسل سروج فريدة يجلسون عليها متربعين • ولكن سرعة الجمل كبيرة الى حد يضطر معه الراكب الى ان يلف راسه وجسمه بالعصابات ليتقي تاثير الريح • وكان هذا الرسول يحمل مرسوما من السلطان • اذ حدث ان اسر رجال سفينة ومركبين حربيين لامير طارنت امام طرابلس في سورية مركبا عربيا فرد السلطان على عملهم هذا بان اصدر مرسوما يقضي بالقبض على جميع من في دمشق وسورية من اهل قطالونية وجنوة • ولم تخفني هذه الاخبار عندما نقلها لي المكاري • ودخلت المدينة بشجاعة مع غيري من العرب اذ ظننت انه لا داعي للخوف ما دمت البس مثلهم • واستغرقت الطريق سبعة ايام •

وفي اليوم الذى تلا وصولي رأيت قافلة عائدة من مكة .. وقيل انها تتالف من ثلاثة الاف جمل . الحق ان دخولهم المدينة استغرق نهارين وليلتين (٤٨). وكان يحتفل بمثل هذه المناسبة في العادة . فقد خف نائب دمشق يحيط به كبار رجال المدينة للقاء القافلة احتراما للقرآن الذى كانت تحمله . والقرآن هو كتاب الشريعة الذى خلفه محمد لاتباعه . وكان ملفوفا بجلد من الحرير يحمل نقوشا عربية . وكان الجمل الذى يحمله مزينا ايضا كله بالحرير . وكان يتقدم الجمل اربعة عازفين وعدد كبير من الطبول والابواق يحدث ضاربوها ضجة كبيرة . وكان يتقدم الجمل ويحيط به حوالي ثلاثين شخصا يحمل بعضهم الاقواس والسهام ويحمل اخرون سيوفا مشهرة ، ويحمل غيرهم طنجيات (٤٩) كانو يطلقونها من وقت لاخر .+ وكان يسير وراء هذا الجمل ثمانية من الرجال المسنين على ظهور الجمال السريعة تسير الى جانبهم خيولهم المزركشة ، وعليها سروج غالية كما كان متبعا عندئذ . وكانت وراء هؤلاء سيدة تركية تربطها بامير القافلة صلة نسب ومحمولة على محفة في هودج يحمله جملان مزركشان . وكانت اكثر الجمال ملفوفة باقمشة مطرزة من الذهب . وكانت القافلة تضم عربا واتراكا وبربرة وتترا وفرسا وافرادا من طوائف اخرى من اتباع النبي محمد المزيف (٥٠) ويدعي هؤلاء الناس بان قيامهم بالحج يجنبهم دخول جهنم ، واكد لي هذا عبد مرتد عن الدين بلغارى الاصل من مماليك السيدة الانفة الذكر واسمه هايولدوله (٥١) ويعني بالتركية "عبد الله" . ويدّعي هذا المملوك انه حج الى مكة ثلاث مرات . وقد سعيت الى التعرف اليه لانه كان يعرف شيئا من اللغة الايطالية .

(+) هذا خبر مبكر عن الاسلحة النارية الخفيفة الشذف ، وكانت امثال هذه الاسلحة في هذا الوقت من الاشياء الجديدة في اوروبا . (رايت)

وكثيرا ما قضى بعض الوقت معي في الليل والنهار • وكنت خلال حديثي معه اساله عن محمد ومكان قبره • وقد اخبرني انه في مكة (٥٢) وان الحرم الذى قبر فيه يقوم في مزار مستدير الشكل مفتوح من الاعلى وان الزوار يرونه من خلال هذه الفتحة (٥٣) ، وان بعض الزوار بعد ان يرونه يفقاون اعينهم اعتقادا منهم بانه لا يبقى بعد رويته ما يستحق المشاهدة • والحق ان اثنين من افراد القافلة ، بلغ احدهما السادسة عشرة من عمره والاخر يتراوح عمره بين اثنتين وعشرين وثلاثة وعشرين سنه فقآ اعينهما • واضاف ما يولد وله الى ذلك بان غفران الذنوب لا يتم في مكة بل في المدينة حيث بنى ابراهيم البيت الذى لا يزال قائما + • وشكل البناء يشبه شكل دير ، ويقوم الحجاج بالطواف حوله •

اما فيما يختص بالبلدة [مكة] فهي واقعة على شاطىء البحر (٥٤) • ويقوم الهنود ، من سكان بلاد برسترجون (٥٥) ، بجلب التوابل وغيرها من منتجات بلادهم في سفن كبيرة • ويفد المسلمون على تلك البلاد لشراء هذه السلع فيحملونها على الجمال وغيرها من الدواب ويؤمون اسواق القاهرة ودمشق وغيرهما من المدن كما هو معروف • وتستغرق المسافة بين مكة ودمشق اربعين يوما عبر الصحارى • وتشتد الحرارة في هذه المنطقة • وقد اختنق كثرة من رجال القافلة بسببها • وقد ذكر هذا العبد بان القافلة السنوية الى المدينة تتالف من سبعمائة الف شخص • (٥٦) واذا لم يتحصل مثل هذا العدد فان الله يكمله بملائكة من عنده ، ويدخل الله في جنته من شاء من عباده فينعمون بالمن والسلوى والنساء • ولما كنت اسمع الكثير عن محمد فقد رغبت في ان اعرف شيئا عنه • فتعرفت لهذا الغرض على قس في دمشق يعمل في خدمة

(+) وقع بروكيبه في خطأ • ذلك ان قبر محمد هو في المدينة وليس في مكة ، واما البيت الذى بناه ابراهيم فيقوم في مكة لا في المدينة ، مكة هي التي يقصدها الحجاج لغفران الذنوب وحيث تنشط الاعمال التجارية العظيمة (رايت)

قنصل بندقي (٥٧) ، وكثيرا ما يقيم القداس في بيته ويقبل اعتراف تجار البندقية ، وينظم لهم عند الضرورة شئونهم • وبعد ان اعترفت له ، وانتهيت من تنظيم شئوني الدنيوية معه سالته عما اذا كان يعرف تعاليم محمد • فرد علي بالايجاب ، واضاف بانه على علم بما جاء في القرآن • فرجوته ان يدون لي كل ما يعرفه لكي اقدم هذه المعلومات لسيدى دوق برغندية • وقد قام بذلك العمل بسرور وجلبت المعلومات معي •

وكنت انوي الذهاب الى بورصة (+) • فتعرفت الى عربي ، واتفقت معه على ان يرافقني في طريق القافلة مقابل ثلاثين دوكة بالاضافة الى نفقات رحلته • ولكن لما كنت قد اوصيت بالا اثق بالعرب من هذه الملة المنكودة الذين لا يوفون بوعودهم ، فقد رفضت ان اعقد الاتفاق معه • واقول هذا لفائدة اولئك الذين يعاملون العرب • وقد عرفني هايولدولة على تجار من كرمان • ولكنني عزمت على عمل شيء اخر •

وبخصوص الحجاج الذين يذهبون الى مكة ، فان لسلطان الأتراك عادة غريبة خاصة به — وانا لا اعلم اذا كانت السلطات الاخرى تحذو حذوه — وهو انه عندما تغادر القافلة اراضيه يختار لها رئيسا يجب اطاعته كما لو كان هو السلطان • وكان رئيس هذه القافلة يدعى هوباراخ ، وهو من اهل بروسة ومن سكانها الاصليين • وطلبت التعرف اليه بواسطة مضيفي وشخص اخر ، بصفتي واحدا يحب زيارة تلك المدينة لروية اخ له • فرجياه ان يقبلني في جماعته ، وان يظلّلني بحمايته • فسال ان كنت اعرف العربية او التركية او العبرية او اللسان العامي او اليونانية • وعندما عرف اني اجهلها كلها قال "حسنا ، فباى مظهر يستطيع ان يظهر؟" ثم وافق • وبعد ان غطى وجهه بيديه ومسح على لحيته ، اخبرني بالتركية باني استطيع ان انضم الى عبيده • ولكنه اصر على ان البس مثلهم •

وعقب هذه المقابلة مباشرة ذهبت مع واحد من اصدقائي الى السوق ، ويدعى بازار ، واشتريت قبائين بيضاوين يصلان الى الكعبين ، وعمامة كاملة ،

(+) بروسة •

وزنارا من الكتان ، وزوجا من السراويل القطنية لا دس فيها أطراف القباء كما اشتريت صولقين (٥٨) احدهما لاستعمالي الخاص، والاخر لوضع رأس الفرس فيه عندما أطعمه الشعير والتبن • ومعلقة من الجلد وملحا ، وحشية لانام عليها ، واخيرا دراعتين من الجلد الابيض بطنتهما بالكتان لاستخدامهما في الليل • كما اشتريت جعبة كاملة لاعلق بها سيفي واقواسي • اما الجعبة والسيف فكان على ان اشتريهما سرا • اذ لو علم رجال القضاء بذلك لتعرضت انا والبائع لاخطار كبيرة •

وسيوف دمشق خير السيوف وافضل ما يصنع في سورية • ومن الطريف ان يرى الانسان طريقة صقلها • ويقومون بهذه العملية قبل سقيها • ويستخدمون لهذا الغرض قطعة صغيرة من الخشب مثبتا فيها قطعة من الحديد يمسحون فيها النصل وهكذا يسوونه كما تسوي فارة النجار الخشب • ثم يدقون النصل ويصقلونه • وتتم عملية الصقل بطريقة ممتازة بحيث ان الشخص عندما يصلح عمامته ينظر الى نصله كما لو كان مرآة • ويتم سقيها باتقان ، ولم ار في حياتي نصالا اقطع منها • وتصنع في دمشق وما حولها مرايا من الفولاذ تكبر الاشياء كالزجاج الذى يولد النار • ورايت بعضها • وكانت اذا عرضت للشمس عكست الحرارة بقوة من شانها ان تشعل النار في لوح خشب على بعد خمسة عشر او ستة عشر قدما •

واشتريت حصانا صغيرا لكنه جيد • وقبل مغادرتي نعلته في دمشق ، ويحسنون نعل خيولهم الى حد انني لم اصلح خلال سفرى الى بروسة كالذى يستغرق خمسين يوما ، سوى نعل من النعلين الاماميين وذلك بسبب دخول مسمار في رجله ، جعله يعرج طيلة ثلاثة اسابيع • والنعال خفيفة ، قليلة السمك ، تطول عند الكعب ويقل سمكها عما هي عليه في المقدمة • ولا تنفك هذه النعال •

وليس فيها سوى اربعة خروق للمسامير ، اثنان في كل جهة والمسامير مربعة الشكل لها رؤوس سميكة ثقيلة . وعندما يراد تركيب نعل ، واريد تعديله بحيث يلائم حافر الحصان ، يتم ذلك دون ان يحمى في النار ، مع ان هذا ممكن بسبب قلة سمك النعل . ويكشطون الحافر بسكين للتقليم ، ويشبه تلك التي تقلم بها اشجار الكرمة في هذه البلاد وفي بلادنا . وخيول هذه البلاد تمشي وتهرول فقط . ويفضل من يريدون شراء الخيل افضلها سيرا ، كما هو الحال في اوروبا حيث تفضل الخيول التي تتقن الخبب . ولهذه الخيول مناخير عريضة وتهرول جيدا ، وهي ممتازة ايضا لا تكلف صاحبها الكثير اثناء السير . فهي لا تاكل الا في الليل ، وطعامها لا يعدو كمية قليلة من الشعير والتبن . ولا تشرب الا بعد الظهر . ولجام الواحد منها يترك دائما في فمه حتى عندما يكون في الاسطبل ، وذلك مثل البغال . وفي الاسطبل تربط رجلاه الخلفيتان . ويجمع في الاسطبل بين الخيول والافراس . وجميع هذه الخيول ، باستثناء القليل ، تخصى . واذا حدث ان زرت غنيا من اجل عمل ، فانه يقودك الى الاسطبل ليتحدث معك (٥٩) ، ولهذا يحافظ كل المحافظة على نظافة اسطبلاته ورطوبتها . اما نحن ، الاوروبيين ، فنفضل الجواد الاصيل ، ولكن العرب يقدرون الافراس فقط . وفي بلاد العرب لا يجد الرجل العظيم عارا في ان يركب فرسا يعدو مهرها وراءها . وقد رايت بعض افراس رائعة الهيئة تباع الواحدة منها بثلاثمئة دوكة . ومن عادة العرب ان يحافظوا على ضمور افراسهم لئلا تسمن ، ويحمل الاغنياء معهم ، عندما يركبون خيولهم ، طبولا يقرعونها في المعركة او في المناوشات ليحمسوا رجالهم . ويربط الطبل الى كربوس السرج ، ويضربونه بقطعة مسطحة من الجلد . واشتريت انا ايضا واحدا ، ومهمازا وحذاء قرمزيا طويلا بحيث يصل الى ركبتي كما يفعل اهل البلاد .

وعلامة على اعترافي بجميل هوياراخ ذهبت لاقدم له قدحا من شراب الزنجبيل الاخضر • ولكنه رفضه ، وبعد توسلات نجحت في اقناعه بقبوله •

ولم يكن هناك ضمانة لسلامتي غير التي ذكرت ، ولكني وجدته طيبا حسن النية ، وربما فاق من هذه الناحية اخواني النصارى •

وقيض لي الرب الذى حماني خلال هذه الرحلة ان اتعرف الى يهودى من كافا (٦٠) كان يتكلم لغة التتر واللغة الايطالية • وقد طلبت منه ان يساعدني في تدوين اسماء كل ما قد احتاجه لنفسي ولحصاني خلال الطريق • وبعد يوم من مسيرنا وصلنا بعلبك فاخرجت ورقة لادون الاسئلة التي لا غنى لي عن معرفتها للحصول على الشعير والتبن لحصاني • وكان بقربي عشرة اتراك انفجروا ضاحكين عندما عرفوا ما كنت افعله • وعندما اقتربوا مني بقصد الاطلاع على ورقتي دهشوا كثيرا لرويتهم طريقة كتابتي كما يحصل لي عندما ارى كتابتهم • وقد ابدوا بعض العطف علي ، وبذلوا كل ما في وسعهم لتعليمي كيف اتكلم التركية • وكانوا يطلبون مني اعادة بعض الكلمات دون تذمر ، وكانوا يعيدونها على مرارا لئلا انساها • وعندما افترقنا كنت اعرف كيف اطلب ما احتاجه بالتركية •

وخلال اقامة القافلة في دمشق قمت بزيارة كنيسة السيدة في قرية صيدنايا التي تبعد ستة عشر ميلا (٦٠) • وفي طريقنا اليها قطعنا جبلا طوله ربع ميل يتصل بحدائق دمشق • ثم هبطنا الجبل الى واد ممتع مملوء بالكرمة والبساتين ، وفيه ينبوع ماء عذب • وتقوم على صخرة في هذا المكان قلعة صغيرة فيها كنيسة يرتدى رهبانها الالبسة الخضراء ، وعندهم ايقونة للعذراء على الخشب ، نقل راسها الى هذا المكان بمعجزة •

ولكن لا اعرف كيف تم ذلك (٦١) ويقال ان الصورة تعرق زيتا .+ وكل ما استطيع ان اقوله هو انني عندما ذهبت الى ذلك المكان رايت عند نهاية الكنيسة ، خلف الهيكل الكبير ، كوة في الجدار يطل منها الايقونة ، ويبلغ ارتفاعها قدما ونصف قدم تقريبا ، وعرضها قدما واحدا . ولا اعلم ما اذا كانت من الخشب او من الحجر لانها كانت مغطاة بالملابس . وكانت مقدمتها مغطاة بعوارض خشبية يقوم عند قاعدتها وعاء للزيت . وبادرتني هناك امراة بالتحية ، ثم ازاحت الملابس بملعقة من الفضة ثم ارادت ان ترسم بالزيت الصليب على جبهتي وصدغي وصدري . واعتقد انها كانت تحتال لابتزاز المال . ومع هذا فلا اقصد القول بان سيدتنا لا تقوى على ان تفعل عملا يفوق عمل هذه الايقونة .

وعدت الى دمشق ، وفي عشية سفر القافلة دبرت شئوني ، وقمت بالصلاة كما لو اني كنت على حافة الموت . لانني وجدت نفسي فجاءة في مشكلة . فقد اتيت من قبل على ذكر الوسول الذى بعثة السلطان للقبض على تجار جنوة و قطالونية في داخل بلاده . وعلى هذا فقد قبض على مضيفي ، وكان جنويا ، وجمعت املاكه ، وعين عربي في بيته للعناية بها . وحاولت ان انقذ له بعض هذه الاملاك ، ولكي لا يراها العربي ، عملت على اسقائه الخمر حتى سكر . وقبض علي بدوري ، ومثلت امام احد قضاتهم الذين يعتبرون مثل اساقفتنا ويقومون على تنفيذ العدالة . واحالني هذا القاضي على

(+) اتى كثير من مورخي القرن الثالث عشر على ذكر عذراء صيدنايا التي اشتهر ذكرها خلال الحروب الصليبية ، وقد اورد هولاء المورخون ذكر ما تعرقه من الزيت وما له من قدرة على عمل المعجزات . ومثل هذه الاخبار الخرافية كانت شائعة في اسيا . ومن بين تلك الاخبار خبر اشاع عن سيل مادة من قبر الاسقف نقولا وهو احد القديسين الذى يشك كثيرا في انه وجد . بل ان السائل الذى ادعي بانه من قبر هذا القديس اصبح هدفا للعبادة . وقرا في احداث سنة ١٦٥١ ان رجل دين من باريس اخذ قارورة من السائل وطلب من رئيس الاساقفة ان ياذن له ان يعرضها اكراما للمومنين — لوبوف "تاريخ باريس — المجلد الاول ج ٢ ص ٥٥٧ (رايت)

اخر ، فبعثني هذا الى السجن مع التجار مع انه عرف انني لست تاجرا • وقد جر علي هذا الشر ترجمان كان يريد ان يبتز مني المال كما فعل خلال اول رحلة لي الى هذه البلاد • ولولا (انطوان موروزان) قنصل البندقية ، لدفعت مبلغا من المال ، لكنني بقيت في السجن • وسافرت القافلة في هذه الاثناء • واضطر القنصل ، في سبيل اخراجي من السجن الى مقابلة حاكم دمشق مع اخرين ، وزعم له انه قبض علي دون سبب وهو شيء يعرفه الترجمان جيدا • فارسل الحاكم في طلب جنوى يدعى جنتيل امبريال وهو تاجر يبتاع للسلطان عبيده من كافا (٦٣) • وسالني الحاكم عن نفسي وعن عملي في دمشق • وعندما اجبته بانني فرنسي عائد من زيارة للقدس ، قال انهم اخطاوا في حبسي وامر باطلاق سراحي •

وسافرت في اليوم التالي وهو السادس من اكتوبر (تشرين اول) برفقة مكارى كنت قد كلفته بحمل ملابسي التركية خارج المدينة لانه لم يكن يسمح للنصراني بلبس العمامة البيضاء داخلها • وبعد مسافة قصيرة يقوم جبل رأيت عليه بيتا يقال انه كان بيت قابيل (٦٤) • وكانت طريقنا خلال اليوم الاول من السفر فوق الجبال ، الا انها كانت مريحة • وفي اليوم التالي دخلنا بلادا جميلة تمتد حتى بعلبك • واذ انضممت هناك الى القافلة فقد تركني المكارى . وكانت القافلة قد حطت رحالها قرب نهر بسبب ارتفاع الحرارة في هذه الجهات • ومع هذا فالليل بارد و وهو امر صعب التصديق ، والندى يتساقط بكثرة • والتحقت بهويا رباراخ الذى اكد اذنه لي بمرافقته ، ونصحني بالا افارق القافلة •

وفي صبيحة اليوم التالي ، وحوالي الساعة الحادية عشرة ، اسقيت حصاني وقدمت له الشوفان والتبن — كما يفعل اهل البلاد • ولم يقل لي الاتراك شيئا هذه المرة • اما في المساء ، بعد ان سقيت حصاني ، وبينما كنت احاول ربط مخلاته لياكل ، قاوموني واخذوا المخلاة ، لانهم لا يسمحون لخيولهم بالاكل الا اثناء الليل ، ولا يسمحون لحصان بان ياكل قبل خيولهم ، الا اذا كانت تمرح فوق الاعشاب •

وكان رئيس القافلة يصطحب معه مملوكا جركسيا من مماليك السلطان يبغي الذهاب الى كرمانيا ، بقصد البحث عن اخيه . فلما راني هذا الرجل وحيدا ، اجهل لغة البلاد ، احب ان يساعدني كرفيق له واخذني معه . ولما لم تكن له خيمة فقد اضطررنا ان نبيت الليل تحت اشجار البساتين . ولهذا السبب فقط تعلمت كيف انام على الارض وان اقتصر في شرابي على الماء ، وان اجلس متربعا . فكان يلومني في بادىء الامر ان اجلس على هذا النحو ، وما كان اشد ايلاما منه ، هو ترويض نفسي على الجلوس فوق الحصان باستخدام ركابين قصيرين كاللذين كانا معي — فتالمت الى حد انني عندما ترجلت عن الحصان لم اقدر على ركوبه ثانية الا بمساعدة ، وذلك لما اصاب فخذى من جراء الركوب . لكني تعودت بعد وقت قصير على الركوب على ذلك النحو ، بل انني وجدت هذه الطريقة تفضل طريقتنا في الركوب . وفي المساء ذاته تناولت عشائي مع ذلك المملوك ، لكن لم يكن امامنا سوى الخبز والجبن والحليب . وكان معي غطاء طاولة فرشته خلال تناول الطعام كما يفعل اغنياء البلاد . وطول قطر الواحد من هذه المفارش اربع اقدام ، ومستديرة ، مشدود بها خيوط وذلك لطيها بعد الاكل . وعندما تستعمل تنشر ، واذ ينتهي الاكل تجمع بما عليها من فضلات . دون ان تضيع كسرة خبز او حبة زبيب . ولكني لاحظت انهم لا بد وان يشكروا الله بعد فراغهم من الاكل مهما كان نوع طعامهم .

وبعلبك مدينة جميلة تحيط بها الاسوار ولها شهرة تجارية (٦٤) وتقوم في وسطها قلعة مبنية بحجارة كبيرة . وفيها جامع يضم جمجمة انسان لها عينان ضخمتان الى حد يستطيع معه الرجل ان يدخل راسه في فتحتيهما . ولا استطيع ان اوكد هذا لانه لا يسمح بدخول هذا الجامع لغير العرب .

وسافرت من بعلبك الى حمص وخيمنا على ضفتي النهر (٦٥) . وهناك لاحظت الطريقة التي ينصبون فيها خيامهم . وخيامهم واطئة صغيرة الحجم يستطيع الشخص

الواحد ان ينصب الخيمة دون مساعدة • وتتسع الواحدة لوقاية ستة اشخاص من حرارة الشمس • وخلال النهار يتركون الاقسام السفلى من الخيام مفتوحة كيما تسمح بدخول الهواء ، ولكنهم يقفلونها في الليل • ويقوى الجمل على حمل ٧ او ٨ منها مع اعمدتها • وبعض هذه الخيام حسن الشكل • ولما لم يكن لي وللمملوك خيمة فقد اوينا الى بستان قريب • فانضم الينا تركمانيان من ساتاليا + وكانا عائدين من مكة • فتناولا العشاء معنا • ولكنهما عندما رايا جودة ملابسي وحصاني الفاخر وسيفي الجميل وجعبتي الكاملة اقترحا على المملوك ، كما اخبرني فيما بعد عندما اختلى بي ، ان يتخلصوا مني • وقد فعلا ذلك لانني لم اكن في نظرهما سوى نصراني غير جدير برفقتهم • فاجابهما المكارى بان مثل ذلك العمل يعتبر جرما كبيرا ما دمت قد شاركته خبزه وملحه ، وان القانون يحرم اقتراف عمل مثل هذا ، وان الله هو خالق العرب والنصارى على السواء • ولكنهما اصرا على تنفيذ خطتهما • وعندما اظهرت رغبتي في زيارة حلب ثاني مدن سورية بعد دمشق الحاعلى في مرافقتهما واذ كنت لا اعلم شيئا عما ينويانه فقد قبلت عرضهما • ولكني الان اقتنعت بانهما كان يريدان القضاء علي • ومنعهما المملوك من الاقتراب منا بعد ذلك وبهذا انقذ حياتي •

وغادرنا بعلبك قبل الفجر بساعتين ، وكانت قافلتنا تتالف من اربعمائة الى خمسمائة شخص ، وستة الى سبعة الاف جمل وبغل ، لانها كانت تحمل قدرا كبيرا من التوابل • وماصف نظام سيرها • فمع القافلة طبل كبير وفي اللحظة التي يصدر فيها الرئيس امرا بالرحيل يضرب الطبل ثلاث مرات ، فيستعد كل واحد للسير ، وعندما يصبح جاهزا ينضم الى الصف دون ان يتفوه بأية كلمة • ويحدث عشرة من الاوروبيين ضجة اكبر من تلك التي تصدر ، في مثل هذه الحالات عن الف منهم • فهم يسيرون في صمت الا في الليل ، واذا انشد احدهم قصيدة يتغنى فيها بمآثر أجداده •

(+) Satalia

وعند الفجر يقوم اثنان او ثلاثة يبعد احدهم عن الاخر مسافة كبيرة بالصراخ (٦٦) ويرد احدهم على الاخر كما يحدث من ماذن الجوامع في اوقات معينة . وباختصار ، فان المؤمنين يقومون بالصلوات والأدعية قبل شروق الشمس وبعدها . وعندما يصلون جدولا يترجلون للوضوء فيخلعون احذيتهم ثم يغسلون جميع اجسادهم . فاذا لم يكن هناك جدول ماء قريب فانهم عندما يحين وقت الصلاة يمسحون بايديهم على اجسادهم . ويقوم اخر واحد فيهم بغسل فمه ودبره ثم يتجه الى الجنوب (القبلة) ويرفع الباقون اصابعهم في الهواء ثم يركعون على الارض ويقبلونها ثلاث مرات . ثم ينهضون ويقولون أدعيتهم . فقد امروا ان يمارسوا هذه الصلوات بدلا من الاعترافات . ويحمل علية القوم ، حرصا منهم على تادية واجباتهم ، أوعية جلدية مملوءة بالماء يعلقونها تحت كروش الجمال والخيل ، وغالبا ما تكون جميلة الشكل .

وحمص مدينة عامرة تحيط بها الأسوار والخنادق والمتاريس وتقوم وسط سهل على ضفتي نهر صغير وهنا ينتهي أحد أطراف سهل نوح الذى يقال انه يمتد حتى فارس . وقد سلك تيمورلنك هذا الطريق خلال هجومه عندما استولى على كثير من المدن وخربها . وعند نهاية المدينة قلعة كبيرة قائمة على مرتفع وحولها المتاريس الممتدة حتى القلعة .

ومن حمص توجهنا الى حماه . والبلاد طيبة ولكن لم ار سوى عدد قليل من السكان غير العرب . وقد كان العرب منهمكين في اعادة بناء بعض القرى التي امتدت اليها ايدى التخريب . والتقيت في حماة بتاجر من البندقية اسمه لورنت سورانز . واحسن هذا وفادتي ، واضافني في بيته . واراني المدينة والقلعة . وفيها ابراج قوية ، لها جدران منيعة سميكة ، ومبنية مثل قلعة بروفانز على صخرة حفرت فيها الخنادق . وعلى احد اطراف المدينة تقوم القلعة وهي منيعة وقائمة على مرتفع ، ومحصنة بالخنادق ، ويعلوها برج يشرف عليها كلها . ويغسل جوانبها بمياهه نهر قريب يقال انه احد الانهار التي تنبع من الجنة+ . ولا ادرى اذا كان هذا صحيحا ام لا ، وكل ما اعرفه انه يجرى

(+) وهو نهر العاصي . (رايت)

شرقا ثم الى الجنوب الشرقي بقرب انطاكية (٦٧)• وفي هذا البلد اكبر العجلات (النواعير) التي رايتها +• ويحركها النهر وتزود السكان على كثرتهم بالمياه اللازمة • ويجرى الماء في حوض شق في صخر القلعة • ومن هناك تسير الى المدينة حيث تجرى في الشوارع في اقنية مقامة على اعمدة عظيمة سريعه ترتفع مقدار ١٢ قدما ، وعرض الواحدة قدمان • وكنت في حاجة الى عدة اشياء ذكر لي اياها المملوك لتجعلني ابدو تماما رفيق سفر • فاخذني مضيفي لورنت الى السوق لشرائها • وكانت هذه الاشياء هي : عمامتان حريريتان ، على طريقة التركمان ، وطاقية لالبسها تحت الواحدة منهما وملاعق تركية ، وامواس فولاذية ، ومشطا ومحفظة ، وكاسا من الجلد ، وكل هذه تعلق بالسيف • واشتريت كذلك ختيعة للف الاصبع عند استعمال القوس ، وكانت جميله ، ثم اشتريت جعبة اخرى كاملة ، لاحتفظ بالتي كانت معي لجمالها ، واشتريت مطرا وهو معطف مصنوع من اللبد لا ينفذ المطر خلاله •

وتعرفت في طريقي الى بعض المسافرين معي ، فلما اكتشف هؤلاء انني اقيم في بيت واحد من الافرنج جاءوا يطلبون مني ان احصل لهم على بعض النبيذ ، وذلك لان هذا الشراب تحرمه ديانتهم عليهم ، ولا يجرأون على شربه امام مواطنيهم • لكنهم كانوا يأملون ان يشربوه دون التعرض للخطر في بيت احد الافرنج على الرغم من انهم كانوا عائدين من مكة • واخبرت مضيفي لورانت عن هذا الامر ، فاجاب بانه يخشى ان يوافق لما يتعرض له من خطر فيما اذا افتضح الامر • فذهبت لانقل اليهم ما قاله لي ، لكنهم كانوا في هذه الاثناء قد وجدوا بغيتهم في مكان اخر وذلك في بيت يوناني • فعرضوا على ان ارافقهم وان اشترك معهم اما بسبب الصداقة او لكي يكون هناك مبرر لشربهم الخمر بحضور ذلك اليوناني • فساقنا هذا الرجل الى رواق جلسنا فيه على شكل دائرة على الارض • فقام اولا بوضع اناء فخاري كبير في وسطنا يحتوي على اربع (غالونات)

(+) ولا تزال هذه النواعير على نهر العاصي (رايت)

على الاقل • ثم قدم لكل منا وعاء مملوء بالنبيذ قام بصبه في القدح ووضع بجانب القدر قدحين من الفخار [illegible] للشرب منها • واول من بدأ يشرب شرب نخب رفيقه كما جرت العادة عندهم • وحذا الرفيق حذوه وقلدهم الاخرون • وشربنا على هذا النحو زمنا طويلا دون طعام • واخيرا رايت انني لا استطيع الاستزادة من الخمر بسبب التعب الذى لحقني ، ورجوتهم ويداى مرفوعتان ان يسمحوا لي بالانصراف • لكنهم غضبوا كثيرا واخذوا يتذمرون كما لو انني كنت عازما من البداية على تعكير صفوهم والاضرار بهم • ومن حسن الحظ انه كان بينهم واحد يعرفني اكثر من سواه ويحبني لدرجة انه صار يدعوني (قرداش) اى اخي • وتبرع بان ياخذ مكاني عندما ياتي دورى • فهدأ من ثائرتهم • وعندما قبلوا تبرعه ظلوا يشربون حتى المساء الى ان حان موعد عودتهم الى الخان •

وكان رئيس القافلة في تلك اللحظة جالسا على مقعد من الحجر وامامه مصباح مضيء ولم يكن يصعب عليه ان يعرف المكان الذى جئنا منه ، ولهذا فان اربعة من رفاقي افلتوا واختفوا وظل واحد معي • واذكر هذا كله لاحذر الاشخاص الذين قد يتجولون في هذه البلاد من احتساء الخمر مع المواطنين الا اذا كانوا يرغبون في ان يشربوا قدرا كبيرا منه يذهب بعقولهم ويطرحهم ارضا • اما المملوك الذى كان يجهل ما اتيته في غيبتي فقد كان في تلك الاثناء قد اشترى اوزة لي وله • وكان قد سلقها في الماء • واذ لم يكن لدينا خل فقد طمرها بأوراق الكراث الخضراء • واكلتها معه وظللنا ناكل منها ثلاثة ايام •

ولا بد انني كنت ساحب حلب ، لو لم تسلك القافلة الطريق الضيق الى انطاكية مما اضطرني الى الابتعاد عن التفكير فيها • ولما كانت القافلة ستسافر بعد يومين ، فقد اقترح المملوك ان نسبق القافلة لنحجز مكانا للنوم • ورغب ثلاثة تجار اتراك في مرافقتنا فسرنا نحن الستة • وعلى بعد نصف فرسخ من حماة وصلنا نهرا (٦٨) قطعناه بواسطة جسر وكان النهر قد فاض على الرغم من عدم سقوط المطر • وهنا رغبت

في ان اسقي حصاني ، لكن لما كانت حافة النهر وعرة والنهر عميقا فقد كنت ساغرق حتما لولا مساعدة المملوك . وعلى الجانب الاخر من النهر سهل واسع طويل (٦٩) لقينا فيه ستة او ثمانية من التركمان (٧٠) تصحبهم امراة وكانت تحمل جعبة سهام مثلهم . ولما سالت عن سبب ذلك اجابوني بان نساء تلك الامة على قدر كبير من الشجاعة وانهن يحاربن الى جانب الرجال . وقيل لي ايضا ، وهو شيء عجيب ، ان هناك ثلاثين الفا من النساء يحملن كنافات ، وانهن يخضعن لسيد يدعى توركجاد يرولي+ ويقيم بين جبال ارمينية على تخوم فارس (٧١).

وفي اليوم التالي من سفرنا سرنا خلال بلاد جبلية خصبة على قلة مائها . ولكننا لم نر شيئا سوى البيوت الخربة . وعلمني المملوك خلال سيرنا كيف ارمي بالقوس وحملني على شراء ختيعات وخواتم لهذا الغرض . واخيرا وصلنا الى قرية احراجها كثيرة واشجار الكرمة فيها وفيرة وسهول القمح واسعة ، لكن لا ماء فيها اكثر مما كان في صهاريجها . ويبدو ان هذه المقاطعة كان سكانها في السابق من النصارى . واقر بان الفرح غمرني عندما علمت بانها كانت تابعة للفرنجة ولا تزال اثار الكنائس تشهد بذلك . وحططنا رحالنا في هذه القرية مما اتاح لي ان ارى لاول مرة مساكن التركمان ونساء تلك الامة السافرات . وهن في العادة يخفين وجوههن وراء برقع صوفية سوداء ، وتشبك بها نساء الاثرياء قطعا من النقد والاحجار الكريمة . ورجال هذه الامة رماة مهرة . فقد رايت عددا منهم يرمي عن القوس ، فكانوا يفعلون هذا جالسين ولا يبعدون سهامهم عنهم مما يجعلها تنطلق بسرعة وقوة عظيمتين .

وعند خروجنا من اراضي سورية (٧٢) دخلنا تركمانيا التي نعرفها باسم ارمينية (٧٣). وعاصمتها بلدة على جانب كبير من الاهمية ويدعوها اهل البلاد باسم

(+) تور .. كادر .. اوغلو (رايت)

انطاكية • وقد كانت عامرة فيما مضى (٧٤)• ولم تزل لها اسوار في حالة جيدة تضم داخلها مساحة واسعة من الارض وحتى بعض الجبال • لكن بيوتها لا تزيد عن ثلاثمئة • ويقوم الى جنوبها جبل والى شمالها بحيرة واسعة ووراء هذه البحيرة ارض واسعة جميلة • ويكاد يكون سكانها كلهم من العرب والتركمان يشتغلون بتربية الماشية كالجمال والمعز والبقر والغنم • واكثر معزهم بيضاء ، وهي اجمل ما رايت• اذ ليست لها اذان طويلة متدلية كما هو الحال في سورية • ولاغنامهم موخرات كثيفة عريضة وشعرها ناعم مجعد على شيء من الطول • ويشتغل اهلها بتربية الحمير البرية التي يدجنونها • وهي تشبه ذكور الاوعال فيما يختص بشعرها واذانها ورووسها ، وحوافرها المشقوقة • ولا اعلم ما اذا كان صهيلها يشبه اصوات الوعول لاني لم اسمع صهيلها • وهذه الحمير كبيرة الاحجام جميلة الشكل تسير مع الحيوانات (الداجنة) الاخرى • ولكن لم ار واحدا منها مركوبا • ويستخدمون الجاموس والثور في نقل السلع كما نستخدم الحصان او يركبونهما ايضا • وقد شاهدت قوافل من الجواميس والثيران بعضها تحمل السلع والاخرى تحمل الناس •

تعليقات

كشف باسماء الرحالة الاوروبيين الواردة اسماؤهم في التعليقات ، والكتب التي رجعت الى رحلاتهم فيها ، والسنين التي زاروا فيها البلاد المقدسة .

---

(١) Casola 1494

Newett, M. Margaret: Canon Pietro Casola's Pilgrimage to Jerusalem (Manchester 1907)

(٢) Frescobaldi and Gucci 1384

Publications of the Studium Biblicum Franciscanum No 6 (Jerusalem 1948)

(٣) Maundrell 1697

Maundrell, Henry; A Journey from Aleppo to Jerusalem in Early Travels in Palestine by Wright (1848)

(٤) Poggibonsi 1384

Poggibonsi, Fra Niccolo of : A voyage Beyond the Seas. Tr. by Bellorini, Fra T. And Hoade, Fra E. (Jerusalem 1945.)

(٥) Suriano 1481-84 , 1493 - 1515

Suriano, Fra Francesco : Treatise On The Holy Land. Tr. by Bellorini and Hoade. (Jerusalem 1949)

١ — الغفران في عرف الكنيسة هو التجاوز عن العقاب الذى يستحقه الانسان عن خطاياه بعد ان صفح له اثمه . وتقسم الغفرانات الى شخصية ومكانية ووضعية . فالشخصية تمنح لشخص معلوم او لجماعة معلومة لا يربحها غيرهم . والمكانية تناط بمكان مقدس، مثلا ببعض الكنائس او المزارات، اما الوضعية فتمنح لبعض المواد المتنقلة كايقونة مقدسة او صليب مثلا .

وتقسم الغفرانات ايضا الى كاملة وجزئية . والكاملة هي التي تريح الانسان من التاديبات والعقوبات الزمنية التي استحقها بسبب خطاياه بعد توبته . والجزئية هي التي تزيل جزءً من هذه العقوبات . فغفران اربعين يوما مثلا معناه انه يعفى الخاطئ من عقاب قانوني كان مفروضا عليه سابقا لمدة اربعين يوما (مجلة الشرق : عدد ١٢ (١٩٢٤) ص ص ٩٤١ — ٥٣)

ويحصي نقولو اوف بوجيبنسي (ص XXIII) الغفرانات في فلسطين فيقول بان فيها ستة وعشرون غفرانا كاملا وخمسة وسبعون غفرانا جزئيا .

٢ — يتفق هذا الوصف الذى يورده بروكييه ليافا مع ما جاء في اوصاف رحالة القرن الخامس عشر لها ويضيف كاسولا (ص ٢٣٥) الذى زار البلاد في سنة ١٤٩٤، انه راى في الجهة الشرقية من يافا اثار سور، وانه شاهد برجين فيها يستخدمان لحراستها .

وكانت الحياة تدب في يافا عند قدوم سفن الحجاج . فكانت البندقية، كما يقول هيد (ج ٢ ص ٤٦٦) تسير سفينتين في كل سنة اليها . وكان حكام الجهات يهرعون اليها عند قدوم الحجاج . وقد حضر عند نزول كاسولا في هذا الثغر (ص ٢٢٤) حاكم غزة، وحاكم الرملة وحاكم نابلس ونائب عن حاكم غزة . وكان يحضر كذلك كبير التراجمة في القدس ومساعده .

ويذكر سوريانو (ص ص ٣٨ — ٣٩) الذى شغل منصب حارس الاماكن المقدسة بين سنتي ١٤٩٣ — ٩٦ و ١٥١٣ — ١٥١٥ ان السهل المحيط بيافا كان مزروعا قمحا وذرة وقطنا وبطيخا .

٣ — يقول بروكييه بانه لم يكن للرملة اسوار ، ويوافقه مجير الدين الحنبلي الذى يقول (ج ٢ ص ٤١٧) بانه كانت للرملة اسوار حتى حدود الخمسمئة هجرية ، وانه لم يبق من اثر لتلك الاوصاف بعد خروج الفرنج . اما كاسولا (ص ٢٣٩) فيذكر ان لها سورا وابوابا ولكنها غير منيعة ، ويضيف كذلك ان فيها سوقين كبيرتين احداهما للاطعمة والاخرى للتجارة . ويذكر سوريانو (ص ٣٩) انها تصدر الفواكه للقدس وغزة .

وكان الحجاج ياوون الى النزل الذى بناه الدوق فيليب الطيب فيها . وكان خاضعا لادارة الفرنسيسكان . ويذكر كاسولا ان المشرف على ادارته هو واحد من نصارى البلاد (ص ٢٣٧)

٤ — اسم هذه القرية هو اللد . وكان اسمها في زمن الرومان ديوسبوليس . ويعتقد ان القديس جورج الكابادوكي قاتل التنين استشهد فيها خلال حكم دقليديانوس بعد ان عذب . ويقول فيها مجير الدين الحنبلي (ج ٢ ص ٤٢٠) : "وكانت لد في الزمن السالف منزلا جميلا فيه ناس يعمرونه وفيه كانت تنزل الرفاق والقافلة الواصلة من مصر الى الشام . وكانت بلد كنيسة محكمة البناء واسعة الفناء عليها للنصارى اوقاف كثيرة ولهم فيها اعتقاد الى يومنا . وقد خربها الملك صلاح الدين رحمه الله تعالى ورضى عنه . وقد صارت البلد يومئذ قرية كبقية القرى . ولكنها حسنة المنظر وظاهرها بهيج ." ويذكر كاسولا (ص ٢٣٩) انه وجد الكنيسة خربة .

٥ — يقصد بروكييه جبل القرنتل الواقع وراء اريحا . ويدل الاسم على الايام الاربعين التي صامها المسيح . ويذكر فريسكوبالدى (ص ٧٩) انه كان يقوم عند قاعدة الجبل خان ينزل فيه المسافرون . وكان يدير الكنيسة القائمة في سفح الجبل رهبان يونان .

٦ — يقصد بروكييه قرية العيزرية وتبعد خمسة كيلومترات عن القدس على الطريق الى اريحا • ويذكر سوريانو (١٣٨ — ١٣٩) انها كانت تضم حوالي خمسين بيتا • وتقوم في وسطها الكنيسة التي تضم قبر اليعازر الذى اعاده المسيح الى الحياة • وغير بعيد من هذه الكنيسة كان يقوم بيت مريم المجدلية الذى حول الى كنيسة تمجيدا لها • وفيها كذلك قلعة القديسة مارتا ولكنها كانت خربة • وعلى بعد ميل من العيزرية تقوم عين الرسل • وقد سميت بهذا الاسم لان الرسل اعتادوا الاستراحة عندها •

٧ — يذكر سوريانو (ص ١٣٤) ان بيت لحم كانت تضم في اواخر القرن الخامس عشر حوالي ١٥٠ بيتا • والكنيسة المقصودة هنا هي كنيسة المهد التي بناها قسطنطين الكبير في سنة ٣٣٦• وقد احدث جستنيان الاول فيها بعض الاصلاحات ، وامر الامبراطور البيزنطي عمانوئيل كومنينوس (١١٤٣ — ١١٨٠) باعادة بنائها وتجميلها •(١)

(١) Marmarosch, A : Old And New Places In Palestine Syria And Lebanon (Jerusalem 1946) P. 110

٨ — الزنار خيط غليظ يشد في الوسط • وقد وردت عدة اشارات في كتب الرحالة الاوروبيين الى " النصارى اصحاب الزنار" ويقصدون بهم النصارى من اهل البلاد • وقد زعم سوريانو (ص ٨٤) ان هذا الاسم اطلق عليهم لانهم حين يعمدون ويغطسون يشد الكاهن وسطهم بزنار • اما كاسولا فلا يعلم من اين جاءهم هذا الاسم •

ويقول ترتون بان الزنار كان من جملة الملابس التي فرضت على النصارى لتمييزهم • ويضيف الى هذا انه لم تكن هناك في وقت الفتح حاجة لالزام النصارى لبس نوع معين

---

(٢) ترتون : اهل الذمة في الاسلام ص ص ١٢٢ — ١٣٥

من الثياب ، لكن صدرت في عهد عمر الثاني (٧١٧ — ٧٢٠) مراسيم بشان ملابس اهل الذمة تحرم عليهم لبس العمائم او التشبه بالمسلمين في ثيابهم وتفرض عليهم لبس الزنار .

وفي عهد هرون الرشيد فرض على الذميين لبس الزنانير وهي خيوط غليظة تعقد في وسطهم .

واصدر المتوكل في سنة ٢٣٦ هـ مرسوما يلزم النصارى واهل الذمة بشد الزنانير .

وقد كان النصارى قبل الاسلام يتزينون بالزنانير المحلاة بالذهب والفضة .

وقد اشتهر النصارى في الاسلام دون غيرهم بلبس الزنانير حتى اصبح سمة لمن يتحول الى النصرانية (١)

---

(١) الزيات ، حبيب : مجلة المشرق جزيران ١٩٤٩ ص ص ٢٠٠ — ٢١٥

٩ — يشير بوركييه الى هيرود الكبير (٤٠ — ٦ ق.م) الذى امر بقتل الاطفال في بيت لحم املا بان يكون المسيح من جملتهم وقد اخفت القديسة اليصابات ابنها يوحنا (المعمدان فيما بعد) في الصخرة التي يذكرها بروكييه .

١٠ — يرجح ان بروكييه يقصد من قوله " النصارى الاحرار " اولئك الذين لم يكونوا من اصحاب الزنار اى من رعايا السلطان النصارى .

١١ — يحصي سوريانو (ص ٧٧) عشر طوائف من النصارى المقيمين في كنيسة القيامة . وهي :

١. الفرنسيسكان او الفرنجة .
٢. الموارنة من ارثوذكس وكاثوليك .
٣. اليونان .

٤. الجيورجانيون او الايبريون .
٥. الاحباش (الهنود)
٦. الاقباط .
٧. اليعاقبة
٨. السوريون او النصارى من اصحاب الزنار
٩. الارمن
١٠. النساطرة .

ويحصى كاسولا (ص ٢٧٦) تسع طوائف فقط . ويعلق سوريانو (ص ص ٧٧ — ٩١) على كل طائفة فيصف الموارنة بانهم لطيفو المعشر مسالمون وانهم من اصل طلياني .
اما اليونان فهم الد اعداء اللاتين . واما الجيورجانيون فهم هراطقة ممقوتون .
والارمن شعب لطيف غني وكريم . والاحباش تابعون لملك الحبشة برسترجون . واليعاقبة يحبون اللاتين ولكنهم يكرهون اليونان ، وباقي الطوائف الاخرى باستثناء الاحباش .
واما الاقباط فلم يتصل سوريانو بهم لانهم كانوا قد غادروا القدس الى القاهرة .
ويذكر انهم كانوا اقل الطوائف الاخرى عدوا .

(١٢) المقصود هنا كنيسة القديسة كاترينة . وقد بنيت بين موت ثيودورا (٥٦١م) وموت جستنيان (٥٦٥م) . ويذكر جوكي (ص ١١٣) ما قيل له من ان في الدير مئتي راهب يراسهم اسقف كبير . ويوافق في هذا فريسكو بالدي (ص ٥٩) ويذكر ابن فضل الله العمري (١) ان الكنيسة تقوم في اعلى جبل سيناء ولها ثلاثة ابواب من الحديد ، ويضيف " انه عامر بالرهبان . فلايخلو من احد من اهل البطالات للتفرج والتبرك — على رايهم — به " ..

---

(١) العمري ، ابن فضل الله : مسالك الابصار — (القاهرة ١٩٢٤) ص ٣٧٢

١٣ — لا نستطيع تعيين القرية التي يشير اليها بروكييه لان المسافر من القدس الى الخليل يمر باكثر من قرية .

ويشير بروكييه الى ان النصراني لم يكن يستطيع دخول الجامع حيث يقوم قبر ابراهيم . ويتعرض النصراني عند دخوله كما يذكر فريسكو بالدى (ص ٦٨) الى احد امرين : ترك دينه او القتل .

وقد زار ابن فضل الله العمرى الحرم في سنة ٧٤٥ هـ ووصفه بقوله (١) "وهذا الحرم مؤزر جدره بالرخام الملون والمذهب . وعليه اوقاف جليلة ويمد فيه كل يوم بعد العصر سماط ويفرق فيه من الخبز على الواردين بحسبهم قد ركفايتهم "... وله خدم برسم غربلة القمح وطحنه وعجينه وخبزه . لا يبطلان ليلا ولا نهارا .. ولما استولى الفرنج على بلد الخليل (علية السلام) اجروا هذا السماط وزادوا على من كان قبلهم وبالغوا في صلة هذا المعروف ... ثم زاد ملاك الاسلام في السماط . وهو معروف يشمل المامور والامير والغني والفقير ."

ويذكر سوريانو بان القائمين على الحرم يوزعون خمسة عشر الف رغيف في اليوم وان "اربعة افران تشتغل في خبز العجين من منتصف الليل حتى الظهر"

وكانت الخليل جميلة عامرة في القرن الخامس عشر وفيها مصانع للزجاج .

(١) مسالك الابصار : ١٧٠ — ١٧٤

١٤ — تقوم في هذا المكان كما يذكر فريسكوبالدى (ص ٦٨) كنيسة صغيرة شيدت اكراما للقديس يوحنا المعمدان عند عين تسمى عين المعمودية قرب قرية تفوح .

١٥ — نزل في هذا الخان اكثر من حاج • ويسميه الحاج جوكي (ص ١٢٣) Butingi ويرجح انه كان في قرية بيت جبرين او حولها ، على بعد اربعة وعشرين كيلومترا شمال غربي الخليل • ويذكر فريسكوبالدى (ص ٦٧) ان سيدة من فلورانس قامت ببنائه وانه دفع درهما واحدا اجر مبيته فيه ليلة واحدة • ويذكر جوكي ان بانيه هو رجل ترك النصرانية اوصى بان يسمح للحجاج بالمبيت فيه دون مقابل ، وانه لم يدفع شيئا •

١٦ — كانت غزة على طريق القوافل من الشام الى مصر • وقد وصفها ابن بطوطة ، الرحالة العربي من القرن الرابع عشر ، بقوله (الرحلة ص ١١٣ — ١١٤)

" وهي اول بلاد الشام مما يلي مصر • متسعة الاقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الاسواق بها المساجد العديدة ، ولا سور عليها وكان بها مسجد جامع حسن "

ويذكر سوريانو (ص ١٨٥) انها اهلة بالسكان • وقد ترك لنا فريسكوبالدى (ص ص ٦٦ — ٦٧) وصفا لنائب غزة وقصره ، اذ كما يقول ، كان النائب يطلب مقابلة الحجاج الذين يزورون المدينة وانه يرسلهم احيانا الى القاضي "الذى يجلسك الى جانبه "• ويذكر ان القاضي قدم له ولاصحابه الفواكه •

ويذكر هيد (١) انها كانت تضم عدداً من التجار الاغنياء • وان الفرنج كانوا يمرون بها فقط •

(١) Heyd: Histoire du Commerce du Levant (1886) Vol.II P. 466

١٧ — تولى نيابة غزة في سنة ١٤٣٢ م (٨٣٦هـ) اينال العلائي الظاهرى (ثم الناصرى)• وقد نقل في هذه السنة الى الرها • وعين بدلا منه الامير سيف الدين جانبك ولكنه توفى قبل ان يصلها • (١)

(١) النجوم الزاهرة : (ط كاليفورنيا) ج ٦ قسم ٢ ص ٨٢٦•

١٥ — نزل في هذا الخان اكثر من حاج • ويسميه الحاج جوكي (ص ١٢٣) Butingi ويرجح انه كان في قرية بيت جبرين او حولها ، على بعد اربعة وعشرين كيلومترا شمال غربي الخليل • ويذكر فريسكوبالدى (ص ٦٧) ان سيدة من فلورانس قامت ببنائه وانه دفع درهما واحدا اجر مبيته فيه ليلة واحدة • ويذكر جوكي ان بانيه هو رجل ترك النصرانية اوصى بان يسمح للحجاج بالمبيت فيه دون مقابل ، وانه لم يدفع شيئا •

١٦ — كانت غزة على طريق القوافل من الشام الى مصر • وقد وصفها ابن بطوطة ، الرحالة العربي من القرن الرابع عشر ، بقوله (الرحلة ص ١١٣ — ١١٤)

" وهي اول بلاد الشام مما يلي مصر • متسعة الاقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الاسواق بها المساجد العديدة ، ولا سور عليها وكان بها مسجد جامع حسن "

ويذكر سوريانو (ص ١٨٥) انها اهلة بالسكان • وقد ترك لنا فريسكوبالدى (ص ٦٦ — ٦٧) وصفا لنائب غزة وقصره ، اذ كما يقول ، كان النائب يطلب مقابلة الحجاج الذين يزورون المدينة وانه يرسلهم احيانا الى القاضي "الذى يجلسك الى جانبه "• ويذكر ان القاضي قدم له ولاصحابه الفواكه •

ويذكر هيد (١) انها كانت تضم عدداً من التجار الاغنياء • وان الفرنج كانوا يمرون بها فقط •

(١) Heyd: Histoire du Commerce du Levant (1886) Vol.II P. 466

١٧ — تولى نيابة غزة في سنة ١٤٣٢ م (٨٣٦هـ) اينال العلائي الظاهرى (ثم الناصرى) • وقد نقل في هذه السنة الى الرها • وعين بدلا منه الامير سيف الدين جانبك ولكنه توفى قبل ان يصلها • (١)

(١) النجوم الزاهرة : (ط كاليفورنيا) ج ٦ قسم ٢ ص ٨٢٦•

١٨ — يرجح ان بروكييه يقصد دير البلح • فقد اشار سوريانو (ص ١٨٥) الى ان الطريق بعد دير البلح الى سيناء عبارة عن صحراء • ويقدر سوريانو المسافة بينها وبين غزة بخمسة اميال • ويذكر الحاج جوكي (ص ١٢١) هذا المكان ذاته في طريقه من دير القديسة كاترينة الى غزة فيقول :

" ووصلنا قرية تبعد حوالي اربعة كيلومترات من غزة • وهي قرية كبيرة وجميلة • وعند هذه القرية تنتهي الصحراء وتبدأ الارض المفلوحة المثمرة التي يقيم فيها الناس • ووجدنا في هذه القرية ماء كثيرا عذبا وبلحا وعنبا طازجا • فظننا اننا وصلنا الجنة ".

١٩ — انظر ملاحظة ١٢

٢٠ — يظهر ان الحيوان هو الورل وجاء في معجم الحيوان في وصفه " وهو من الزحافات ، طويل الانف والذنب ، دقيق الخصر لا عقد في ذنبه كذنب الضب وهو اطول من الضب واقصر من التمساح يكون في البر والماء والجمع اورال " (١)

(١) معلوف : الامين فريق : معجم الحيوان (دار الهلال ١٩٣٢)

٢١ — كانت عسقلان خربة في القرن الخامس عشر • وقد خربها صلاح الدين الايوبي خوف ان تسقط في ايدي الفرنج • (١)

(١) Ziadeh, Nicola : Urban Life in Syria P. 54 , 59

٢٢ — يذكر سوريانو (ص ص ١٢٣ — ١٢٥) انه كان يقيم في كنيسة جبل صهيون اثنا عشر راهبا من الفرنسيسكان . ويضيف ان هؤلاء كانوا يعاملون معاملة سيئة حتى سنة ١٤٧٥ . وقد تحسنت فيما بعد معاملة الناس لهؤلاء بسبب التجاء اميرين الى كنيسة جبل صهيون وهما : قايتباى ويشبك . اذ احسن الرهبان معاملة هذين الاميرين . فعندما اصبح قايتباى سلطانا (١٤٦٨ — ١٤٩٥) حمى الرهبان من اعتداءات الشعب والموظفين . لكن سوريانو يذكر ان الرهبان لقوا بعد انتهاء سلطنة قاتيباى مصاعب جمة .

٢٣ — يقصد بروكييه رئيس جبل صهيون .

٢٤ — يذكر ابن بطوطة (ص ص ١٢٩ — ١٣٠) ان عكا كانت عندما زارها خرابا ويقول انها "قاعدة بلاد الافرنج في بلاد الشام . ومرسا سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر ." وقد كان تجار البندقية يخزنون فيها ما يجمعونه من قطن البلاد . وكان يقيم بها وكيل لشركة تجارية بندقية يشترى القطن لحسابها . (١)

(١) Heyd: Histoire du Commerce Vol. II PP. 465 - 466

٢٥ — كان ميناء صور صالحا للتجارة . وكانت زراعة القصب مزدهرة حول صور . وكان البنادقة يصدرون من مينائها خمور البلاد الى انجلترا (١). ويذكر جون منذ فيل (٢) (١٣٢٢) بان العرب يحرسون ميناءها جيدا خوفا من غارات الاوروبيين .

(١) Heyd : Vol. II P. 466

(٢) Wright : P. 141

٢٦ — وصف سوريانو (ص ١٦٤) صيدا في اواخر القرن الخامس عشر بقوله : "وهي الان خراب كلها ما عدا القلعة والبرج اللذين يحرس منهما الميناء .... وتدخل ميناءها السفن والمراكب الصغيرة"

٢٧ — قام جان ديبلين (١٢٠١ — ١٢٣٦) الذى انتدبه كونراد دى مونفيرا لامرة بيروت بتحصينها . فاقام اسوارها ودعمها بالابراج ورمم حصنها . وبهذا اصبحت من امنع مدن سواحل الشام في وجه العدو .

وفتح المماليك بيروت في عهد الملك الاشرف صلاح الدين خليل ابن الملك منصور قلاوون الصالحي (١٢٩٠ — ١٢٩٤) . وقام علم الدين سنجر الشجاعي الذى ولاه السلطان امرها بهدم سور المدينة وقلعتها .

شيخو مالاب لويس: بيروت تاريخها واثارها (بيروت ١٩٢٥) ص ص ٥٥ — ٥٨

٢٨ — يشير الى سلسلة جبال لبنان الغربية .

٢٩ — يقصد بروكييه البقاع ويشير الى نهرى الليطاني والعاصي . اما عرض السهل فيتراوح بين ٨ و ١٦ كلم .

٣٠ — قدر جاك دى فيرون الذى زار دمشق في سنة ١٣٣٥ سكانها بمئة الف نسمة .

Ziadeh, Nicola: Urban Life P. 96

٣١ — وهو جبل قاسيون

٣٢ — انظر المقدمة ص ١٩

٣٣ — الخان الذى يقصده بروكييه هو خان برقوق الذى يحمل اسم موسسه السلطان برقوق • وكان التجار يودعون فيه السلع التي يشترونها من الاسواق •

وكانت الفنادق منتشرة في انحاء سورية • فكان للبنادقة والجنويين وتجار قطالونية فنادقهم في بيروت • والفندق الوحيد الذى كان في طرابلس كان يخص البنادقه • اما في الشام فكان للتجار من كل امة فندقهم الخاص • وكانت في حلب فنادق كثيرة •

وكانت العادة في الاسكندرية وسوريه ان يلجأ التجار الاجانب الى فنادقهم في الليل ويقفلوا عليهم الابواب حتى الصباح •

٣٤ — يقصد السلطان برقوق •

٣٥ — غزا تيمورلنك سورية في سنة ١٤٠٠ • ودخل حلب ونهبها في نوفمبر من سنة ١٤٠٠• ثم زحف على دمشق ودخلها في يناير من سنة ١٤٠١•

٣٦ — كانت بيروت في القرن الخامس عشر ميناء دمشق وملتقى التجار من مختلف الجنسيات • وكان التجار يقصدونها للاستجمام • ولكن سكانها في القرن الخامس كانوا اقل عددا مما كانوا عليه في عهد الصليبيين •

Heyd : Vol. II PP. 459 - 460

٣٧ - جاء في الكتاب المقدس وصف حدوث الرؤيا : (١)

" ولما كنت ذاهبا في ذلك الى دمشق بسلطان ووصية من رؤساء الكهنة رايت في نصف النهار في الطريق ايها الملك نورا من السماء افضل من لمعان الشمس قد ابرق من حولي وحول الذاهبين معي . فلما سقطنا جميعا على الارض سمعت صوتا يكلمني ويقول باللغة العبرانية : شاول ! شاول ! لماذا تضطهدني ؟ صعب عليك ان ترفس مناخس . فقلت انا : من انت يا سيد ؟ فقال : انا يسوع الذى انت تضطهده ."

(١) اعمال الرسل : ٢٦ ، ١٢ - ١٦

٣٨ - يرجح ان الصواريخ التي شاهدها بروكييه هي قوارير النفط . ويذكر القلقشندى انها قدور ونحوها يجعل فيها النفط ويرمى بها على الحصون والقلاع للاحراق . (١)

وكان الجيش المملوكي يقذف قدور النفط احيانا من المنجيقات . (٢)

(١) القلقشندى : ج ٢ (ط ١٩٢٢) ص ١٣٨

(٢) حسن ، على ابراهيم : دراسات ص ٢٧٥

٣٩ - جاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى قوله (١) " ويزعم النصارى ان البربارة كانت قديسة ولها نشب كبير ببيروت وعيد البربارة منسوب اليها " ويذكر الاب غولوبوفتش (ونقلناه عن تاريخ بيروت للاب لويس شيخو اليسوعي)٢ ان كنيسة القديسة بربارة كانت تقوم شرقي بيروت وان المسلمين انتزعوا هذه الكنيسة من النصارى واتخذوها جامعا باد اثره مع مدى الزمان .

(١) ابن يحيى ، صالح : تاريخ بيروت (بيروت ١٩٢٧) ص ١٧

(٢) الاب لويس شيخو : تاريخ بيروت ص ٨٤

٤٠ — يقصد بروكييه كنيسة المخلص في بيروت ، وكانت كنيسة للفرنسيسكان الذين دخلوا بيروت في عهد الصليبيين . ويورد الاب سوريانو (صص ١٧٠ — ١٧٥) الذى تولى حراسة الاراضي المقدسة مرتين : الاولى سنة ١٤٨٣ والثانية سنة ١٥١٢ ، قصة الايقونة التي نزفت دما .

وجاء في كتاب "تاريخ بيروت" للاب شيخو قوله (١) "ولما كانت السنة ١٥٧١ حارب السلطان سليم الثاني البنادقة وانتزع من يدهم جزيرة قبرس فطرد البنادقة من مدن تركيا ونفى الرهبان الفرنسيسيون بسببهم من بيروت ، وحول المسلمون كنيستهم الى جامع يعرف اليوم بجامع السراى لقربه منها "

(١) الاب لويس شيخو : تاريخ بيروت ص ٨٤

٤١ — يشير الى نهر الليطاني .

٤٢ — يقصد بروكييه العين التي جلب منها الماء الى حفل الزواج في قرية كفركنا التي تبعد حوالي اربعة اميال شمال شرقي الناصرة . ويرجح ان بروكييه لم يمر بكفركنا بل اتى الى الناصرة بطريق صفورية .

٤٣ — يذكر يوجيبنسي (ص ٦٤) انه وجد الناصرة عبارة عن خرائب . ويشير الى ان الكنيسة التي اقيمت على البيت الذى ظهر فيه الملاك جبريل للعذراء قد انهارت كلها ما عدا غرفة العذراء . وقد تكون هذه الغرفة قد تداعت في الفترة بين زيارة بوجيبنسي وزيارة بروكييه .

٤٤ - كانت تقوم في وسط قمة طابور كنيسة وفي وسط الكنيسة قبة مرتفعة . وقد تجلى المسيح فيها لتلاميذه " وتغيرت هيئته قدامهم واضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور . واذا موسى وايليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه " "وفيما هو (بطرس) يتكلم اذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائلا هذا هو ابني الحبيب الذى به سررت . له اسمعوا " (١)

وقد نقشت العبارات التي سمعها التلاميذ على القبة :

Hic est Filius Meus Dilectus
In Quo Mihi Bene Complacui, ipsum Audite.

ويذكر بوجيبنسي (ص ٦٣) ان الكنيسة كانت عندما زارها خرابا . وكان الغفران الذى يحصل عليه الحجاج من زيارة المكان غفرانا كاملا .

(١) متى : ١٧ ، ١ - ١٠

٤٥ - كان القطن في القرن الخامس عشر يكون جزءً مهما من صادرات البلاد . وكان اجوده هو ما يزرع في حماة وحلب . وقد اجتذبت جودة القطن حول هاتين المدينتين اهتمام الرحالة . وكان قطن ارمينية الصغرى ووسط سورية ياتي في الدرجة الثانية من الاهمية ، ثم يليه قطن عكا وقبرص واللاذقية . وكان القطن يصدر من اللاذقية وبيروت وطرابلس وعكا ويافا (١)

ويذكر كاسولا (ص ٢٣٧) ان الاراضي حول يافا والرملة كانت عامرة باشجار القطن . وقد كان تجار البندقية يقصدون الرملة كلما هبطوا في يافا وذلك لازدهار تجارة الخيوط والمنسوجات القطنية فيها .

(1) Heyd: Vol. II 466 , 611 , 612 , 476 .

٤٦ - يقصد بروكييه طبرية .

٤٧ — يشير بروكييه الى جب يوسف • ويقول فيه ابن بطوطة (ص ١٣٣) : وقصدنا زيارة الجب الذى القى فيه يوسف عليه السلام وهو في صحن مسجد صغير وعليه زاوية والجب كبير عميق شربنا من مائه المجمع من ماء المطر • "

٤٨ — استغرق دخول القافلة الى دمشق نهارين وليلتين • ولعل هذا عائد الى ان العادة جرت بان يقوم بالحجاج ركبان ، وهما الركب الاول وركب المحمل وهو اهم الركبين لانه يضم الكسى والهدايا ويسافر في صحبته عظماء الحجاج ، وعند عودة الحجاج يدخل ركب المحمل بعد الاول بيوم واحد •

سليم : محمود رزق : عصر سلاطين المماليك (مصر ١٩٤٧) قسم ٢ ص ١٦٥

٤٩ — لم اعثر على ذكر للاسلحة النارية الخفيفة حتى سنة ١٤٣٢ عند المماليك • وقد تكون هذه الاسلحة تقوم على اشعال البارود في مخزن سلاح على هيئة البندقية •

٥٠ — يظهر هنا بروكييه تأثره بالفكرة السائدة عن محمد في اوروبا في العصور الوسطى • فقد كانوا يصورون النبي كشيطان من الشياطين • وحتى بعد عصر الاصلاح صور كمجال خبيث اناني، وصوره اخرون كرد ينالا طموحا مغلوبا على امره اقدم على اثر فشله في الفوز بكرسي البابوية على ادعاء النبوة •

لويس، برناد : العرب في التاريخ ص ص ٦٢ — ٦٣

٥١ — ربما اخطأ بروكييه في تذكر اسم هذا العبد • فعبدالله بالتركية تبقى كما هي • وليست لكلمة هايولد ولة صلة بها •

٥٢ — يقصد المدينة

٥٣ ـ معلومات بروكيبه بهذا الصدد خاطئة • فزوار قبر الرسول يدخلون حرمه •

٥٤ ـ اخطأ بروكيبه في تعيين موقع مكة ، فهي في داخل البلاد • ولكن السلع التي كانت تجلب من اوروبا والشرق الاقصى والحبشة توجد في اسواقها • فكانت تتوفر فيها المنسوجات القطنية والحريرية والجواهر والبهارات والشمع والافاويه • وكان ميناؤها جدة عامرا بالحركة (١) ويقول ابن بطوطة مشيرا الى توفر السلع في مكة (ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥)

"فكل طرفة تجلب اليها ، وثمرات كل شيء تجبى لها ، ولقد اكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب مالا نظير له في الدنيا ، وكذلك البطيخ المجلوب اليها ... وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه"

(1) Stripling , G.W.F: The Ottoman Turks And The Arabs (1511-1574) (Illinois 1942) P. 22

٥٥ ـ اى الحبشة •

٥٦ ـ انظر المقدمة ص ١٧

٥٧ — كانت دمشق بسبب اهميتها مركزا لاقامة القناصل وخاصة عندما يكون للامة الاجنبية قنصل واحد في البلاد • اما جمهورية البندقية فكان لها قناصل في دمشق وحلب وبيروت وطرابلس •

وتاريخ تأسيس هذه القنصليات غير معروف • واقدم وثيقة رسمية عن قناصل البندقية هي قرار مجلس البندقية الاعلى سنة ١٣٣١ الذى يقضي بتكوين هيئة قوامها اثنا عشر تاجرا لمساعدة قنصل دمشق •

وتفتح سلسلة قناصل دمشق باسم فرانسسكو داندولو في سنة ١٣٨٤ • ومن المحتمل ان تكون قنصليتا دمشق وبيروت قد اسستا في نفس الوقت ، وبعد ان قامت تجارة منتظمة بين البندقية وسورية • ويشك كثيرا فيما اذا كانت قنصليتا حلب وطرابلس ترجعان الى نفس التاريخ •

وكان قنصل دمشق اهم هؤلاء القناصل جميعا •

Heyd: Vol II PP. 464 - 465

٥٨ — الصولق حقيبة كبيرة من الجلد البلغارى تعلق بالمنطقة الى الجانب الايمن من الحزام •

٥٩ — انظر المقدمة ص ١٧

٦٠ - ذكر يوحنا موندرل (١) من رحالة القرن السابع عشر اسماء ستة عشر كنيسة في صيدنايا وحدها في حالة خراب . وذكر ان القائمين على امر دير السيدة هم من اليونان .

وكانت صيدنايا من بين الكنائس الكبرى مثل القيامة والناصرة وبيت لحم وجبل صهيون وطور سينا (٢). وانه لم يكن يسمح للافرنج بزيارتها الا بمرسوم سلطاني . ويشير الى هذا شهاب الدين العمرى بقوله :(٣)

" وكنت اراهم يسألون السلطان في ان يمكنهم من زيارته (صيدنايا) واذا كتب لهم زيارة قمامة (اى القيامة) ولم يكتب معها صيدنايا يعاودون السوال في كتابتها لهم ولهم فيها معتقد "

(١) Early Travels : P. 493

(٢) الزيات محبيب : تاريخ صيدنايا ص ص ٧٠ - ٧١

(٣) مسالك الابصار : ص ص ٣٥٦ - ٣٥٧

٦١ - تروى عدة قصص عن معجزة انتقال الايقونة الى صيدنايا . ويذكر فريسكوبالدى (ص ص ٨٤ - ٨٥) انها كانت ملكا لكاهن الدير في صيدنايا . وحملها مرة معه الى القدس واراد الركوع امام الايقونة فلم يجدها . ولما عاد الى صيدنايا وجدها هناك .

ومن الاساطير التي يرويها فريسكوبالدى عن الايقونة ان عددا من العرب تجمعوا لهدم اسوار الدير فلم يكادوا يلمسون الاسوار حتى اصابهم الشلل فتركوه .

٦٢ - تقع على البحر الاسود وكانت فيها سوق للعبيد يجلب منها المماليك .

٦٣ - وهو جبل قاسيون . وقابيل هو ابن ادم . ويذكر بوجبنسي (ص ٨٠) انه راى جامعا في ذلك المكان .

٦٤ — يذكر ابن بطوطة (ص ص ١٨٦ — ١٨٧) انها تشتهر بصنع الحلوى وصنع الثياب المنسوبة اليها واواني من الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد .

٦٥ — نهر العاصي .

٦٦ — يشير بهذا الى الاذان .

٦٧ — يسير العاصي شمالا ثم يتجه الى الغرب .

٦٨ — يرجح انه يتكلم عن نهر العاصي .

٦٩ — سهل العمق .

٧٠ — ظهر التركمان لاول مرة في سورية في اواخر القرن الحادى عشر . واصبحوا في القرن الثاني عشر قوة لها خطرها . وقد اسكن عماد الدين زنكي جماعة منهم في ولاية حلب وامرهم بمحاربة اللاتين شريطة ان يتملكوا الاراضي التي يستولون عليها . وفي سنة ١٢٦٥ كان هناك عشرون الفا من المشاة التركمان وثلاثين الفا من خيالتهم على استعداد الى الانضمام الى بيبرس . ويشير القلقشندى الى انهم كانوا يشكلون فرقا نظامية في جيوش سورية .

Ziadeh, Nicola: PP. 45 - 46

٧١ — كان هؤلاء التركمان على ما يرجح من اهل مملكة حلب .

٧٢ — لم يخرج بروكييه بعد من سورية . فما زال في مملكة حلب .

٧٣ — يرجح انه يعني ارمينية الصغرى .

٧٤ — كانت أنطاكية قبل ان فتحها الظاهر بيبرس ١٢٦٨ اكبر شأنا مما اصبحت عليه في القرون التالية . ويقول فيها ابن بطوطة "وهي مدينة عظيمة اصلية وكان عليها سور محكم لا نظير له في اسوار بلاد الشام فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها . وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الاشجار والمياه . ابن بطوطة : الرحلة (ص ١٦٢)

كشف المصادر

ا ـ المصادر العربية

١٠ ابن اياس : محمد بن احمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور (مصر ١٣١١ هـ)

٢٠ ابن بطوطة : الرحلة (ط باريس)

٣٠ ابن تغرى بردى ، جمال الدين : النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة (ط كاليفورنيا

٤٠ ابن جبير : الرحلة (ط٠ مصر ١٩٠٨)

٥٠ ابن فضل الله العمرى ، شهاب الدين : مسالك الابصار في ممالك الامصار الجزء الاول (ط دار الكتب المصرية ١٣٤٢ هـ)

٦٠ ابن يحيى صالح : تاريخ بيروت (نشرة الاب لويس شيخو اليسوعي بيروت ١٩٢٧)

٧٠ الاسحاقي ، محمد بن عبد المعطي : تاريخ الاسحاقي (مصر ١٣٠٠ هـ)

٨٠ ترتون ، ا٠س : اهل الذمة في الاسلام (ترجمة حسن حبشي ط٠ دار الفكر العربي ١٩٤٩)

٩٠ حتي ، فيليب : تاريخ العرب المطول (الجزء الثالث ط بيروت ١٩٥١)

١٠٠ حسن ، على ابراهيم : دراسات في تاريخ المماليك البحرية (ط مصر ١٩٤٨)

١١٠ الحسني ، تاريخ سوريا الاقتصادى (ط دمشق ١٩٢٣)

١٢٠ الحنبلي ، مجير الدين : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (جزءان ط مصر ١٢٨٣هـ)

١٣٠ الزيات ، حبيب : تاريخ صيدنايا (ط لبنان ١٩٣٢)

١٤٠ زيادة ، نقولا : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (ط مصر ١٩٤٣)

١٥٠ سليم ـ محمد رزق : عصر سلاطين المماليك (ثلاثة اجزاء ط مصر ١٩٤٧)

١٦٠ سوفاجيه ، جان : دمشق الشام (ترجمة فواد افرام البستاني ط بيروت ١٩٣٦)

١٧٠ السيوطى ، جلال الدين : حسن المحاضرة باخبار مصر والقاهرة (جزءان ط مصر ١٣٢١هـ)

١٨ شيخو ، الاب لويس : بيروت ـ تاريخها واثارها (ط بيروت ١٩٢٥)

١٩. القلقشندى : صبح الاعشى (١٤ جزء ط. مصر ١٩١٤)
٢٠. الكتاب المقدس
٢١. كرد علي - محمد : خطط الشام (ستة اجزاء ط. دمشق ١٩٢٨)
٢٢. لويس، برنارد : العرب في التاريخ (ترجمة نبيه فارس ومحمود زايد بيروت ١٩٥٤)
٢٣. معلوف : الفريق امين : معجم الحيوان (مصر ١٩٣٢)
٢٤. المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (اربعة اجزاء ط مصر ١٣٢٤هـ)
: اغاثة الامة بكشف الغمة (نشرة زيادة والشيال مصر ١٩٤٠)
٢٥. موير السير وليم : تاريخ ادولة المماليك (ترجمة محمود عابدين وسليم مس ط. مصر ١٩٢٤)

ب. المصادر الاجنبية

Atiya, Aziz Suryal: The Crusade in the Later Middle Ages (London 193

Bliss, Frederick Jones: The Development of Palestine exploration (New York 1906)

Cartellieri, Otto: The court of Burgundy (London 1929)

Heyd, W : Histoire du commerce du Levant 2 vols. (Leipzig 1880)

Frescobaldi, Gucci and Sigoli: Visit to the Holy Land (Tr. by Fr. Theophilus Bellorini O.F.M and Fr. Eugene Hoade O.F.M. Jerusalem 1948)

Hitti-Philip: History of Syria (London 1951)

Hoade, Fr. Eugene: Western Pilgrims (Jerusalem 1952)

Jusserand, J.J: English Way faring life in the Middle Ages (London 18

Marmarosch, A: Old and New places in Palestine, Syria and Lebanon (Jerusalem 1946)

Newett, M.Margaret: Canon Pietro Casola's Pilgrimage to Jerusalem in 1494 (Manchester 1907)

Poggibonsi, Fra Niccolo of: A Voyage Beyond the Seas 1346-1350 (Tr. by Fr. Bellorini and Hoade) Jerusalem

Prescott, H.F.M: Friar Felix At Lange (Yale University Press 1950)

Stephenson, Carl: Medieval History (New York 1943)

Stripling, George William Frederick: The Ottomans and the Arabs(Illin 1942)

Suriano, Fra Francesco: Treatise on the Holy Land (Tr. by Bellorini and Hoade Jerusalem 1949)

Wright (ed) Early Travels In Palestine (London 1848)

Ziadeh, Nicola: Urban Life in Syria and the Early Mamluks (Beirut 1953)